﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾

ما هو العجيب [1] - إذن - فى أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته؟ ما الذى تعجبتم منه؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية فى آخر السورة السابقة من أنه:

﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى: من البشر، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه، فما العجيب فى أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحى من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم، وأنكم فى كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام.

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم فى بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شيء فى الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون

---

(١) الشيء العجيب : غير المألوف للناس ، والآدمى إنما يتعجب من الشيء إذا عظم موقعه عنده ، وخفى عليه سببه . وقد تعجب المشركون من قضايا لم تستطع عقولهم استيعابها ، فاحتاج الأمر من القرآن أن ينفى العجب عن هذه القضايا ، وأن يدلل على عكس ما فى أذهان هؤلاء المشركين ، أما القضايا فمنها :

١- قضية توحيد الله سبحانه ، فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ [ص]

٢- قضية إرسال رجل منهم أى: من البشر ، فقالوا : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾[ص]

٣- قضية البعث ، فقالوا : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد].

أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة [1] ، ولم يكن قد نزل عليه وحى بعد ؟ إنها الفطرة التى جعلته أهلاً لاستقبال وحى الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهى هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هى الفطرة السليمة. ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التى كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ،قال : «إن كان قد قالها فقد صدق» .

من أى أحداث جاء حكم أبى بكر ؟ أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول. فقد جربه فى كل شىء ووجده صادقاً ، وجربه فى كل شىء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله ﷺ : يأتينى كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التى فى حياته لا توحى بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : « إنك لتصل الرحم ، وتحمل

---

(١) كان محمد ﷺ يبلغ من العمر حينذاك ٣٥ سنة ، أى : قبل بعثته بـ ٥ سنوات ، وكانت القبائل من قريش قد اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود فى مكانه ، وأعدوا للقتال ، وتعاقد بنو عبد الدار وبنو عدى على الموت ، ووضعوا أيديهم فى جفنة مملوءة دماً . وبقى الأمر على هذا أربع ليال أو خمساً . ويروى ابن إسحاق فى السيرة (١/ ١٩٧) ارتضاء قريش حكومة محمد فى هذا الأمر أن «أبا أمية بن المغيرة قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إلىَّ ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الركن (أى : الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه» .

الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً»[1] وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط[2] فى الإسلام.

وقوله سبحانه : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى: التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقى ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شىء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذى جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاً لا تصدق به أن أحداً من الموجودين فى إمكانه أن يصنعها . والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشىء الذى يفوق تصوره . وقد يتعجب من شىء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ... (٢٨)﴾ [البقرة]

---

(١) حديث بدء الوحى عن عائشة رضى الله عنها أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٦ ومواضع أخرى) ومسلم فى صحيحه (١٦٠) .
– كانت السيدة خديجة بهذه المقولة قد لخصت رسالة الرسول فى كلمات : تعيش مشاكل الناس ناصراً للمظلوم مساعداً للمحروم فتحمل الكل .
وصلة الرحم ارتقاء بالأرحام والأقرباء وهو دفء الإنسانية ، يعيش فيه المجتمع بوجدان الجماعة وحنان الإخاء وإنصاف المظلوم هو اعتدال الموازين العدل ، والقول هو الإسلام ، وبهذا صدق قول الشيخ فإنها أول قضية تستنبط رسالة الإسلام من حالة الرسول قبل تمام الوحى .

(٢) الاستنباط فى الفقه : هو استخراج الفقيه للأحكام الشرعية من بطون الأدلة باجتهاده وفهمه . ومنه قوله تعالى : ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (٨٣)﴾ [النساء] . والاستنباط فى اللغة : استخراج الماء من قعر البئر إذا حفرت .

أى: قولوا لنا: كيف قبلتم لأنفسكم الكفر ؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة.

وهنا يقول الحق:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ... ②﴾ [يونس]

وهنا نتساءل: كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑫⑧﴾ [التوبة]

أليس هذا هو المطلوب فى الرائد، فكيف تعجبون ؟[1].

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب، ونحن نتعجب من عجبكم هذا.

وحين تتعجب من العجب؛ فأنت تبطل التعجب.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ... ②﴾ [يونس]

أى: أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً؛ لأنه أمر منطقى وطبيعى.

ثم ما هو الوحى؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحى هو الإعلام بخفاء. وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك: يا بنى اسمع كذا، وافعل كذا. هذا إعلام واضح. وهناك إعلام بخفاء، كأن يدخل عندك ضيف؛ ثم يسهو خادمك - مثلاً - عن تحيته، فتشير للخادم إشارة؛ تعنى بها أن

---

(١) روى ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية أنه: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومما قاله المشركون: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب؟ انظر: أسباب النزول للواحدى (ص ١٥٢) وتفسير القرطبى (٤/ ٣٢٣٢) وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٠٦).

يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء.

والحق سبحانه وتعالى يوحى إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

أى : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفياً ؛ وهى قد فهمت بطريقة لا نعرفها.

وسبحانه يوحى للحيوانات، فهو القائل :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [1] ... (٦٨)﴾ [النحل]

وأنت لا يمكنك أن تقول: أنا سمعت الله وهو يوحى للنحل ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، وهو سبحانه أعلم بالطريقة التى تم بها هذا الوحى ، والنحل قد فهم عنه سبحانه ، ولا شأن لك بذلك ، فلا تسأل عن كيفية هذا الوحى. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

أى: أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز.

وسبحانه يوحى للملائكة وهو القائل :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ ... (١٢)﴾ [الأنفال]

ويوحى الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى

---

(١) قال الزجَّاج : جائز أن يكون سمى نحلاً ؛ لأن الله عز وجل نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ... (٧) ﴾ [القصص]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً.

إذن: فسبحانه يوحى للجماد، ويوحى للحيوان، ويوحى للملائكة ويوحى للصالحين من غير الأنبياء، ويوحى للأنبياء وللرسل.

والوحى - كإعلام بخفاء - يقتضى مُعْلِماً، وهو الحق سبحانه وتعالى، ومُعْلَماً؛ وهو إما: الأرض، وإما النحلَ، وإما الملائكة، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء، وإما إلى الرسل والأنبياء.

وقد يأتى الوحى من غير الله، فسبحانه يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ [1] الْقَوْلِ غُرُورًا [2] ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

إذن: فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً.

ويقول الحق: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... (١٦٣) ﴾ [النساء]

والموحى إليه هو محمد رسول الله ﷺ، وهو وحى خاص بالرسول، فلا تقل: أنا لم أسمع ماذا أوحى إلى محمد، ولا أعرف كيف نزل

---

(١) زخرف: الزخرف: الزينة، والمراد هنا: التمويه والتزوير، وزخرف القول غروراً: أى: حسن القول بتزيين الكذب.

(٢) الغُرور: ما غرك من إنسان وشيطان وغيرهما، والغَرور: الشيطان ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الأباطيل، ويجوز أن يكون الغُرور جمع غارّ، مثل شاهد وشهود. والغرور: الدنيا ومتاعها، والغرور: الإغراء بالوعد الكاذب والتمنية. ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] و ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (٣٣) ﴾ [لقمان]. والغرور: الخداع وتزيين الشر والمعاصى. وغرر بنفسه وماله تغريراً وتغرة: عرضهما للهلكة من غير أن يعرف. والغَرَر: الخطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغَرَر، وهو مثل بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء. والتغرير: حمل النفس على الغَرَر.

الوحى [1] ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ، وبلغه أن يعلن ما أوحى إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحى من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القوىّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتى بمحوِّل يتحمل طاقة القوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربى حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالى الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذى تضيئه فى المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية «ونّاسة». إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوى ؛ ليضىء لمصدر الطاقة الضعيف.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى يوحى للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقى المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ فى الارتقاء بما يسمح لها بالتلقى عن الله ، وتستطيع أن تلتقى بالبشر ؛ وهذه خاصية المَلَك.

ورغم هذا أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول الله ﷺ فى أول تلقيه للوحى ، وكان ﷺ يعرق حتى يتفصد [2] العرق من جبينه ، وإذا انصرف

(1) عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣).

(2) تفصد العرق : أى : سال العرق من جبينه . وقد قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) ومسلم (٢٣٣٣) من حديث عائشة واللفظ للبخارى .

عنه الوحى قال: « زمّلونى.. زملونى » [1] ويرتعد.

وكان الصحابة يقولون: كان إذا نزل الوحى على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابى ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول ﷺ ، وإذا نزل الوحى ، والرسول يركب مطية فهى تئط منه [2].

إذن : كان الوحى يُتعب رسول الله ﷺ ، وبعد أن يُسرَّى عنه التعب [3] ؛ تبقى له حلاوة ما أوحى إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحى.

وقد شاء الحق أن يشوّق النبى ﷺ ، للوحى ففتر [4] الوحى لمدة من الزمن. وحين اشتاق النبى للوحى ؛ كان ذلك يعنى أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحى ؛ بما فيه من تعب.

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول فى رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة [5] ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب.

وشاء سبحانه أن يُرغّب رسوله شوقاً إلى الوحى ، رغم ما فيه من جهد ؛ لأنه التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن

---

(١) المراد بالتزميل هنا : طلب الحماية وإذهاب الخوف والروع والرعدة التى ألمت بجسمه مما رآه ؛ عن طريق لف جسمه بالثياب وتغطيته . وزمل الشىء : أخفاه ، وزمله فى ثوبه : أى : لفه . والتزمل : التلفف بالثوب ، وقد تزمل بثيابه أى : تدثر . وفى حديث قتلى أحد : « زملوهم فى ثيابهم » أى : لفوهم فيها . أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٣١) من حديث عبد الله بن ثعلبة .

(٢) تئط الناقة : تئن من ثقل الركبان . عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٥٥) .

(٣) يسرى عنه التعب : أى : يذهب عنه .

(٤) فتر الوحى : انقطع . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله - عز وجل - من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ... ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة] .

(٥) أرض موحلة : أى : أصابها الوَحل ، وهو الطين الرقيق الذى ينتج من أثر مطر أو ماء يصيب الأرض .

ينقلب المَلَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله ﷺ ؛ لأن عملية التحويل جاءت فى الأعلى بينما يظل رسول الله ﷺ كما هو ، مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبى ﷺ : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : «هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم»[1] .

هذه هى الصورة الأولى فى الوحى ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبى ﷺ .

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله ﷺ ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد ﷺ ، وكان التحول يقتضى عملية كيماوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : «زمّلونى» .

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحى فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب : إن رب محمد قد قلاه[2] وهذا غباء منهم ؛ لأنهم

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ومسلم فى صحيحه (٨) . والشاهد من الحديث أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فى صورة بشرية ، فلم تكن شاقة عليه ﷺ .

(٢) عن جندب البجلى قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : قد وُدِّع محمد . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقال : حديث حسن صحيح . وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٢٢) من الطريق الذى أخرج مسلم من الترمذى حديثه إلى جندب ، بلفظ : « فقال المشركون : ودع محمداً ربه » .

اعترفوا أن لمحمد ربّـا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف [١] وغباء ، وأرادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد ﷺ ، فقالوا: إن الله قد قلى [٢] محمداً.

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحى عن محمد ﷺ هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربّـا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله ﷺ .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذى عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان.

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له: أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث. وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان به. والأحداث هي عند البشر ، فهم من يستقرون فى المكان ، ويتوالى عليهم الزمان.

والزمان الذى يحدث فيه أى حدث اسمه «ظرف زمان» [٣]، والمكان

---

(١) الصَّلف : مجاوزة الحد فى الادّعاء والتكبّر.

(٢) قليته : كرهته غاية الكراهة ؛ فتركته . والقِلَى: البُغْض.

(٣) الظرف : هو الزمن أو المكان الذى وقعَ فيه الحدث ، ويسميه النحاة «المفعول فيه» أى : أن الحدث أو الفعل قد وقع (أو يقع - أو سيقع) فى زمن ما ، ومكان ما.

الذى يحدث فيه الحدث اسمه «ظرف مكان»؛ وظرف المكان ظرف قارّ [1] ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍّ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتى المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً.

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضى، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتى والنهار خلفه [2] ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛للسكون والراحة، فإن لم ترتحْ بالليل ؛لا تقوى على العمل فى الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له [3] .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحى بهذا الشكل ، فحين جاء الوحى لأول مرة أجهد رسول الله ﷺ ، ثم فتر الوحى ليستريح ﷺ ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحى من بعد ذلك.

وحين قال الكافرون: إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه

---

(١) قار : مستقر ثابت . ومنه أيضاً القرار بمعنى الاستقرار ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً .. (٦٤) ﴾ [غافر] .

(٢) قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (١٦٤) ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢٠١) : «أى : هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة» ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ [الفرقان] أى : جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقال مجاهد وقتادة : خلفة ، أى : مختلفين ، أى : هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

(٣) يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وهاتان آيتان على توحيد الله وأن لهذا الكون إلهاً واحداً ، ولذلك يقول رب العزة : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] .

وتعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ [١] (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ [٢] (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ والضحى ضحوة النهار وهى - كما قلنا - للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده .

إذن : ففتور الوحى لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله ﷺ لتجديد الحيوية . وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتى يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم!

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله [٣] ، بل شاء بفتور الوحى أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق ﷺ لأمر الوحى . وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفى هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا: إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحى أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ ﷺ بعد الضحى المجهد الذى استقبل به الوحى .

---

(١) أقسم الله بالضحى والليل إذا سجى ؛ لأن عظمة الأمل تتجلى فيهما ، وذلك لاستقبال العطاءات الإلهية قائلاً : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] وهذه حماية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] تمام العناية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى] قمة الرعاية ثم أقام له الدليل على العطاء قائلاً : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨)﴾ [الضحى] ما دمت أعطيت هذه العطاءات الثلاث فأطلب منك ثلاثاً : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى] وبهذا يكون انشراح الصدر .

(٢) سجى : سكن وأظلم وامتد . والليل إذا سجى : إذا سكن بالناس أو إذا لَبِسَ الناس . وسُجُوُّ الليل : تغطيته للنهار . وسجا يسجو سجواً ، وسجَّى يسجِّى وأسْجَى يُسْجِى : غَطَّى شيئاً ما . والتسجية : التغطية .

(٣) تأمل هذا المعنى الذى أشار إليه فضيلة الشيخ فى القسم بالضحى محل الحركة والكد والتعب ثم بالليل محل السكون لتجديد الطاقة ، ومطابقة هذا لنزول الوحى وجَهْد النبى فى استقباله ثم انقطاعه لتجديد طاقة الرسول ﷺ . وقد أضاف ابن القيم ملمحاً مكملاً لهذا المعنى فى كتابه : «التبيان فى أقسام القرآن» فقال : «تأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودّع محمداً ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه» . نقله السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٤/ ٥١) .

وبعد أن تتجدد حيويته ﷺ يأتى الوحى من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه فى سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [1] ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ .

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحى وعودته هى عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها متناقضة ويقولون : (ظلمة - وضوء) ، و(ليلٌ ، ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٢﴾ ﴾ [يونس]

والإنذار - كما نعلم - هو الإخبار بشىء يمكن أن تتلافاه . أما البشارة [2] فهى الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل فى دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفى المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعنى أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على

---

(١) الوزر : الحمل الثقيل . أنقض ظهرك : أثقلك حمله .

(٢) البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير ، أما البشارة المقيدة فتكون بالشر كقوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران] ويكون على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية .

ما يضره . والتبشير يعنى أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه . والأمور فى الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول: إن كلمة «الإنذار» كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين فى صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذى يأتى بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء [1] المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة [2] .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس: هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة «الناس» ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك فى القرآن ، وقالوا: إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هى سورة «الناس» حيث يقول الحق: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ**

---

(١) الدَّرْء : الدفع . يقول تعالى : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥١٠) « أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً» .

(٢) المقصود بالمصلحة هو المحافظة على مقاصد الشارع الأساسية ، والتى دل الاستقراء على أنها خمس ضروريات لا بد منها ، وهى : حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال . فكل تشريع أو حكم يحفظ أحد هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يضر بها فهو مفسدة .

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [1] ﴿٤﴾ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ [2] وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة «الناس» فى كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد. ولأنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة «الناس» فى كل موقع هو معنى مختلف وضرورى ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة فى القرآن أن تكون جاذبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له.

والمثال أيضا فى كلمة «الناس» ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد؟ إذن: فقوله الحق: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]

إنما يعنى أن هناك أناساً حاسدين [3] ، وآخرين محسودين. ولا تكون كلمة «الناس» عامة شاملة لكل الأفراد إلا فى حالة الحكم العام.

---

(١) خنس يخنس خنوساً وخناساً: انقبض وتأخَّر. والوسواس الخناس المتحيِّن للفرص فساعة ضعف النفس ينقض ، وساعة عزيمة النفس ينفض ، وهو الذى يوسوس فى صدور الناس من الإنس والجن ، وهو إبليس يوسوس فى صدور الناس، فإذا ذكر الله خنس، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضع خَطْمه (مقدَّم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسى التقم قلبه. فذلك الوسواس الخناس». أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٧٨) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ٢٦٨). ضعف إسناده ابن حجر فى الفتح (٨/ ٧٤٢) وقال : «فيه عدى بن أبى عمارة، وهو ضعيف» وقيل إن له رأسا كرأس الحية ، يجثم على القلب ، فإذا ذكر العبد الله تعالى تنحى الشيطان وخنس ، أى : ابتعد كمن صدم أو أصابه شيء أبعده . والوسوسة : هى الإيحاء بالشر.

(٢) الجِنَّةُ: هم الجن، سموا بهذا لاستتارهم عن أعين الناس، ومنه: جنَّ عليه الليل، أى: ستره، ومنه الجَنين ؛ سمى بهذا لاستتاره فى بطن أمه.

(٣) حسد من باب نصر وضرب - حَسَداً : كره نعمة الله على غيره وتمنى زوالها ، وقد يسعى ليزيلها . قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق] . أى : إذا حاول أن يزيل نعمة الله بمختلف الوسائل ونظرات الحاسد منبعها الحقد « القاموس القويم للقرآن الكريم » ص ١٥٣ .

والمثال هو قوله الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .. (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن [1] آدم ، وآدم هو أبو الناس.

ولا بد - إذن - أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذى وضعه هو من غير الناس ، فالذى وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد: إن إبراهيم - عليه السلام - هو الذى وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم - عليه السلام - كانت هى رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا : إن ابراهيم - عليه السلام - هو الذى بنى البيت؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ [2] مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ... (١٢٧) ﴾ [البقرة]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده فى الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب فى العمل.

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً [3] ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى أن البيت كان موجوداً قبل ذلك.

---

(١) لَدُن : ظرف زمان ، والمراد : من زمن آدم عليه السلام .

(٢) القواعد: جمع قاعدة وهى السارية وأساس البناء .

(٣) كان عُمْر إسماعيل عليه السلام وقت رفع القواعد مع أبيه إبراهيم ١٣ سنة ، أما كونه كان رضيعاً فهو من الإسرائيليات المتلقاة عن أهل الكتاب .

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا: إن إبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم: وماذا عن الخلق البشرى من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ؛ أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس - إذن - عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة فى مواقع أخرى ، مثل قوله :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (٥٤) ﴾ [النساء]

وأما سورة «الناس» التى قال بعض المستشرقين : إن فيها تكراراً . فالأمر ليس كذلك ، بل هيأ لهم ذلك عجزهم عن امتلاك ملكة فهم اللغة .

وحين نتناول كلمة «الناس» بالاستقراء [1] الدقيق فى هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) ﴾ [الناس]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذى أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه ؛ فهو سبحانه يقول:

﴿ مَلِكِ النَّاسِ (٢) ﴾ [الناس]

أى : أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار فى أشياء؛ ومنع عنهم

(١) الاستقراء : القراءة مع التفكير الدقيق فى النص ؛ للوصول إلى المعنى المراد منه . وفى الاصطلاح : تتبع الجزئيات للوصول إلى نتيجة كلية . (المعجم الوسيط) .

الاختيار فى أشياء ، ولم يقل سبحانه : «مليك النَّاس» ؛ لأن هذا القول يعنى أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين فى الأمور التى هى مَنَاط للتكليف [١] ، وغير مختارين فى أمور هى ليست محلاً لهذا [٢] .

وأقول لأى واحد ممن تمرّدوا على الإيمان؛ فكفروا بالله ؛ أقول: أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقياً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التى تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له: لا ، لن أمرض.

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث [٣] ستنال من كل إنسان ما قدره الله له.

إذن: فكل إنسان هو مملوك لله . وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ ﴾ [الناس]

وأن يقول : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ ﴾ [الناس]

و«الناس» فى الآية الأولى هم المربوبون ، والناس فى الآية الثانية هم «المملوكون لله» فلا أحد يخرج عن قدرة الله فى الأمور القهرية.

وتأتى «الناس» فى الآية الثالثة: ﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ ﴾ [الناس]

---

(١) مناط للتكليف: أى محل وموضع للتكليف. مثل الإيمان أو عدمه ثم مقتضيات هذا الإيمان ولوازمه وشروطه. وهى أشياء جعل الله الإنسان مختاراً فيها، فله أن يؤمن أو يكفر. فإذا آمن فعليه أن يلتزم بمتطلبات هذا الإيمان، وهو وإن كان ملزماً بهذا إلا أن له الاختيار فى أن يفعل أو لا يفعل، وبموجب هذا يكون الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة.

(٢) أما الأمور التى يكون الإنسان فيها مجبراً غير مختار فهى التى تتعلق بوجوده فى هذه الحياة من زمن ميلاده ومكانه والظروف المحيطة به ورزقه وهيئته وخروجه من هذه الدنيا.

(٣) الأحداث: حوادث الدهر وحدثانه أى: نُوَبُه وما يحدث منه، واحدها حَدَثٌ؛ والحدث من أحداث الدهر: شبه النازلة والرزء والمصيبة.

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذى يقيك مما ستأتى به الآية الرابعة : ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④﴾ [الناس]

والآية الخامسة : ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ⑤﴾ [الناس]

والوسواس الخناس: هو الذى يزين لك أفعال الشر فى أذنك، وهو خنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم [1]» وهو يوسوس فى صدور الناس الموَسْوَسِ إليهم.

وهكذا نجد أن كلمة «الناس» قد جاءت؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمألوهين ، والموسوس [2] إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس.

إذن: فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه.

والمثال من حياتنا - ولله المثل الأعلى - قد أكون معلّماً متميزاً واختارتنى الكلية التى أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم فى الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة «الطلاب» لها معنى مختلف فى كل موقع.

---

(١) الشيطان: فَيعال من شَطَنَ إذا بَعُد، وهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب . والشاطن: الخبيث.

والرجم: الرمى بالحجارة. رجمه يرجمه رجماً، فهو مرجوم ورجيم، والرجم: اللعن ؛ ومنه «الشيطان الرجيم»، أى: المرجوم بالكواكب، صُرِفَ إلى فعيل من مفعول. والرجيم: الملعون، المرجوم باللعنة، المُبْعَد، المطرود. والرَّجم: ما رُجِمَ به، والجمع رُجوم . والرُّجْم والرُّجوم: النجوم التى تُرمى بها الشياطين : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ .. ⑤﴾ [الملك] .

(٢) الوسوسة والوسواس فى اللغة: الصوت الخفى الذى يشبه الهمس. وهو أيضاً صوت الحَلْى (وهو حُلى المرأة).

والحق يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِندَ رَبِّهِمْ ... ②﴾ [يونس]

والحديث موجه لمحمد ﷺ وهو الرسول الخاتم.

إذن : فالمراد بإنذار الناس هنا ؛ هم جميع الناس.

وما المقصود بقوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ...②﴾ [يونس]

إن القدم[2] كما نعرفه : هو آلة السعي إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء ؛ فتقول : فلان له يد عندي ، أو تقول : أنا لا أنسى أياديك عليّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه ؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه.

إذن : فكل جارحة[3] لها ظاهر في الحركة ؛ وفي الأعمال . فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية . وهكذا يكون معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك

---

(١) قدم صدق : كل ما قدمت من خير . قال ابن قتيبة : أي : أن لهم عملاً صالحاً قدموه . وقدم الصدق : المنزلة الرفيعة والسابقة . ويقول ذو الرمة :

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ   لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ

(٢) القدم : ما يطأ الأرض من الرِّجل وجمعه أقدام قال تعالى : ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .. ⑪﴾ [الأنفال] وهنا بث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين . وقد يأتي اللفظ عن طريق الكناية في قوله تعالى : ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ .. ㊶﴾ [الرحمن] كناية عن شدة العذاب ، والقدم يستعمل مجازاً مرسلاً للمآثر والمكارم التي يقدمها أهل الخير كقوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ .. ②﴾ [يونس].

(٣) جارحة جمعها : جوارح ، والمراد بها : أعضاء الجسم . وهي مأخوذة من الجرح بمعنى الكسب . جَرَح الشيء واجترحه : كسبه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. ⑥⓪﴾ [الأنعام] ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ㉑﴾ [الجاثية] . جرحتم : كسبتم . واجترحتم : اكتسبتم .

يا محمد أن تبشرهم بالجنة. ، ذلك أن لهم سابق قدم ، سعى إلى الخير ، وهو قدم صدق.

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه «قدم كذب» ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب.

قدم الصدق - إذن - هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق. والصدق - كما نعلم - هو الخصلة التى لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعنى التنحّى عن الإيمان. وحينما سئل رسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال: نعم ، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا [1].

إذن: فالصدق هو جماع الخير. وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون.

وحين يصدق التاجر فى ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل فى إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفى فى نقل الخبر ، ويصدق كل فرد فى المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد فى الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذى يخل بحركة الحياة.

لذلك أتى الله بكلمة الصدق فى القرآن فى أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا [2] بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ...(٩٣) ﴾ [يونس]

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً.

(٢) بوأ: أنزلَ وأسكن. والمُبوَّأ: المكان الذى أنزلهم الله تعالى فيه.

فحين قالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ... (٦١) ﴾ [البقرة]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، [1] فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتى الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول :

﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ [2] صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

أى : اجعل لى ذكراً حسناً فيمن يأتون من بعدى ، فلا يقال فى تاريخى كلام كذب ، وألا يخلع علىَّ الناس ما ليس فىَّ.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ [3] ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي [4] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

---

(١) هؤلاء هم بنو إسرائيل بعد ما خرجوا من مصر وأنقذهم الله من فرعون وجنوده ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً لهم ، فقالوا : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة].

(٢) اللسان معروف وهو فى تجويف الفم يحرك الطعام ويكيف الصوت وينوعه . قال تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] .

واللسان : أحد حواس الذوق والنطق . قال تعالى : ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد] واللسان : اللغة . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢) ﴾ [الروم] ولسان صدق : السمعة الطيبة والذكر الحسن .

(٣) الفصال : الفطام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذى يُفصَل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً؛ وفصلت المرأة ولدها ، أى : فطمته . وفَصَل المولود عن الرضاع يفصله فصلاً وفصالاً وافتصله : فطمه .

(٤) أوزعنى : أى : ألهمنى ووفقنى إلى أن أشكر نعمتك . .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد صدق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه.

ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : لا بد لك أن تسبق أى وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه فى الغد فى مكان ما لتتحدثا فى أمرٍ ما.

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ هذا هو أول عنصر قد يُفقد ؛ ثم أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثانى الذى قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذى من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك فى هذه المسألة ؟

إذن : لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له ، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر ، وقل :

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤) ﴾ [الكهف]

إذن : فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً ، ولا تخرج [1] الأشياء مهما كانت عن قدرته ، ولم يترك الأشياء ؛

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران] .

لأنه باق . ولن يتغير رأيه ؛ لأنه ليس حدثاً يتغير . بل بيده كل شيء وهو على كلِّ شيء قدير . وسبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)** ﴾ [القمر]

هكذا وعد الحق عباده المتقين [1] بأنهم سوف يقعدون فى حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر . وسبحانه يقول : ﴿ **أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ... (٨٠)** ﴾ [الإسراء]

أى : أدخلنى فى هذه البلدة مدخل صدق للغاية التى لا أستحى من أن أقولها ، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأنا أخفى غرضاً آخر ، وكذلك أخرجنى منها مخرج صدق .

إذن : فكلمة الصدق دائرة ﴿ **قَدَمَ صِدْقٍ** ﴾ و﴿ **مُبَوَّأَ صِدْقٍ** ﴾ و﴿ **مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾ و﴿ **مُدْخَلَ صِدْقٍ** ﴾ و ﴿ **مُخْرَجَ صِدْقٍ** ﴾ وكل هذا يُحببنا فى الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق [2] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ... (٢)** ﴾ [يونس]

أى : أن لهم سابقة فَضْل عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى

---

(١) من هؤلاء المتقين الذين وردت السنة بأنهم فى مقاعد صدق عند الله عز وجل ، المقسطون ، فعن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ أنه قال : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٧) والنسائى فى سننه (٨/ ٢٢١) .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .. » الحديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول فيه الحق سبحانه:
﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول: إن الرسول ﷺ حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَاتَّهمَ بعضهم رسول الله ﷺ بأنه ساحر [1].

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً [2]، لأن لباقة السامع ستنتهى إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان:

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ... (٢٢) ﴾ [النمل]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له: لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نوارى سوأة الميت ؟

---

(١) اختلف الكافرون فيما بينهم فى الوصف الذى يريدون إطلاقه على محمد ﷺ لتشويه صورته أمام وفود الحجيج القادمة فى الموسم فأرادوا أن يجمعوا على رأى فيه ، أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠): «اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، وانتهى الأمر على القول بأنه ساحر رغم التناقض فيما بينهم .

(٢) الحذف هو نوع من أنواع الإيجاز ، ويكون حسناً لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكون فى تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفى بدلالة الحال ، وتترك النفس تجول فى الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها .

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ...(٣١)﴾ [المائدة]

ويقول قابيل : ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ[1] أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)﴾ [المائدة]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ[2] بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل]

وتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم . وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً ، ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً .

---

(١) السوأة في اللغة : العورة . والسوأة : الفَرْج . قال تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ... (٢٠)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ...(٢٢)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ... (٢٦)﴾ [الأعراف] . والمراد بالسوأة هنا : جسم الميت (قابيل) .

(٢) سبأ : اسم بلدة باليمن كانت تملكها بلقيس ، وهي مدينة تعرف بمأرب قريبة من صنعاء .
وسبأ : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن ، وهو « سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » .

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾ [يونس]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم ﷺ أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة.

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التى إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء فى لقطة أخرى فى قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛ لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن [1] ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها [2] ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

---

(١) قال سبحانه : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل] .

(٢) وذلك أن بلقيس قالت لقومها : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾ [النمل] ثم جاءها رد سليمان على هديتها حيث قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] حينئذ قالت بلقيس : قد والله عرفت ما هذا بملك ومالنا به من طاقة ، وما نصنع بمكابرته شيئاً ، وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك ؛ وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه ، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣).

إذن : فهو قد علم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وماداموا قادمين فى الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادى ؛ ولذلك لم يتكلم الإنس العادى ، لكن الذى تكلم جنى غير عادى ، ذكى ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ [1] مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾ [النمل]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات [2] . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ [3] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة فى تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

---

(١) العفريت : الشديد القوى . وقد يكون من الإنس أو من الجن . وقيل : إن اسمه كوزن وإنه كان كأنه جبل من ضخامة جسمه وقوته .

(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس .

(٣) هو آصف بن برخياء كاتب سليمان ، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم . قيل : إنه قال : ياذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قاله مجاهد فيما نقله ابن كثير عنه فى تفسيره (٣/ ٣٦٤) .

وهكذا حذف التفاصيل التى يسهل معرفتها ، والتى وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس .

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ [1] مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ [يونس]

وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر [2] . ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذى يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهى ليست بحقيقة .

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهى العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون [3] فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها بأنها تغيرت .

---

(١) وردت الآية بقراءتين ، فقد قرأها ابن محيصن والكوفيون عاصم وحمزة والكسائى « لساحر » وصفاً لرسول الله ﷺ . وقرأها الباقون (لسحر) وصفاً للقرآن . نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٣٣) . والقراءتان مؤداهما واحد .

(٢) اتهم الكفار القرآن بأنه سحر فى بضع آيات من القرآن :
- ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٤٣ ﴾ [سبأ] .
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠ ﴾ [الزخرف] .
- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ [الأحقاف] .
* وفى آيات أخرى اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر :
- ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ ﴾ [ص] .

(٣) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخييل والأخذ بالعيون والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء المعين دون غيره ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ ﴾ [طه] .

والسحر يقتضى ساحراً ، ويقتضى مسحوراً ، ويقتضى عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التى تقوم بعملية السحر.

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ... (١١٦) ﴾ [الأعراف]

أى : سحروا الأعين التى ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشىء المسحور على حقيقته.

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة - معجزة موسى - ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائى ، بل تغير من[1] حقيقة المرئى فعلاً . وقد دلَّنا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[2] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[3] أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوَّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّ هارباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذى سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

---

(١) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشىء بقدرته ، والسحر يطلق على الشىء الجميل المؤثر مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » وقد يكون السحر بحاسة من الحواس فيقال : عينه ساحرة وكلامه ساحر ، وقد يكون بالتناسق العام فى المخلوقات التى أبدعها الله.

(٢) ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي (١٨) ﴾ [طه] أى : أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى . نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥).

(٣) مآرب أخرى : مصالح ومنافع وحاجات أخرى غير ذلك.

إذن : فلم يكن هناك سحر فى عينى موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعلىّ فى حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود - بإذن الله - إلى سيرتها الأولى . والدليل على أن التغير قد حدث فى حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا فى منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه]

وقبل موسى عليه السلام التحدى ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه]

وقوله : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ يعنى : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهى أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر [1] يرى الشىء على حقيقته ، والمسحور هو الذى تتغير رؤيته إلى الشىء ، فيُخيَّل إليه أنه شىء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا :

﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

---

(١) الساحر اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه] والمسحور والمسحّر مَنْ به صرع أو جنون يظن الناس أنه من عمل الساحر ، والسحار صيغة مبالغة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء] والسحر : الجزء الأخير من الليل حتى مطلع الفجر وجمعه أسحار قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران] .

إذن : فالتخييل إنما يحدث فى عينى المسحور . أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومن بعد ذلك يرد الحق على حكاية العجب من أن الله أوحى لرسوله ، وكذلك مسألة اتهام الرسول بالسحر ، فيلفتهم إلى قضية فوق هذه القضية ، وأنهم كان عليهم أن يروا العجب فى غير مسألة الوحى إلى الرسول ﷺ .

أى : كان عليكم أن تروا هذه المسألة العجيبة ، وهى خلق السموات والأرض وتتأملوا صنعها [1] ، وكيف حدثت ؟

وإذا كان الله هو الذى خلق السموات والأرض ، وجعلك أيها الإنسان تطرأ على عالم ، وعلى كون معَدّ لك إعداداً دقيقاً ، فكان يجب أن تلتفت إلى هذه المسألة قبل أى شىء آخر .

---

(١) القرآن الكريم مثبوت بالآيات التى تدعو إلى التفكر والتأمل فى خلق السموات والأرض وما بينهما ، فيقول عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] .

وضربنا من قبل المثل ، وقلنا : هَبْ أن إنساناً ركب طائرة ، ثم نفد وقودها وسقطت فى الصحراء ، وكُتبت له النجاة وتلفَّت حوله فلم يجد ماء أو طعاماً أو أى دليل من أدلة الحياة ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ من نومه ، وجد مائدة عليها من أطايب الطعام ، وأطايب الشراب ، أما كان يسأل نفسه قبل أن يأكل ويشرب : من الذى صنع وأحضر كل هذا الطعام ، وكل هذا الشراب ؟

وهذا الكون قد أعدَّ لك أيها الإنسان ، أما كان يصح أن تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون ، وخلق لك كل ما ليس فى متناول قدرتك ، وسخَّر كل ذلك لك ؟ وقد أبلغك الحق : أنا خلقت السماء ، وخلقت الأرض ، والشمس ، والنجوم ، وحين وصلك هذا البلاغ ، فإما أن يكون صدقاً ، فلتنفذ ما أمر به الخالق. وإن لم يكن هذا الكلام صدقاً ، فمن الذى خلق إذن ؟ إن كان هناك إله غيره قد خلق الكون ، وسمع مثل هذا البلاغ ، ولم يتحرك لبيان صدق المسألة ، لما كان هذا الآخر يستحق أن يكون إلها [1].

وما دام لم يظهر معارض له سبحانه ، فهو الخالق ؛ لأن الدعوى إذا ما صدرت من واحد ، ولم يظهر لها معارض ، فصاحبها هو من أصدرها إلى أن يوجد له معارض.

وقد ضربنا مثلاً ، فقلنا : هَبْ أن جماعة من أصدقائك جاءوا

(١) وقد أكد رب العزة سبحانه على هذا المعنى فى كثير من الآيات قائلاً سبحانه وتعالى فى سورة النمل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل] . وقال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء] .

لزيارتك ، ثم خرجوا من عندك ، ووجدت أنت حافظة نقود ، ولم تعرف لمن هى ، ثم بعثت بخادمك ؛ ليسأل من كانوا فى زيارتك ، وقال كل واحد منهم : إن حافظة نقوده لم تضعْ منه ، إلا واحداً قال : نعم ، هى حافظة نقودى . وهكذا تثبت ملكية هذا القائل لحافظة النقود ، إلى أن يثبت العكس .

والحال هنا هكذا ، فحين أبلغنا الحق أنه خلق السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وجعل فى الأرض رزق البشر ، ولم يعارضه أحد ، إذن : يجب أن نصدق أنه الخالق .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم كل هذا الكون مُسخَّراً[1] أفلا تتركون له حرية أن يختار رسولاً منكم إليكم ؟ فما وجه الاعتراض إذن ؟

يكشف الحق منطقهم حين قالوا :

﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : هم قد اعترفوا أن القرآن لا غبار عليه ، لكنهم ساخطون ويعيشون فى ضيق ؛ لأن هذا القرآن قد جاء على يد يتيم أبى طالب[2] .

ويكشفهم الحق أيضاً فيأتى بما جاء على ألسنتهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢) ﴾ [الأنفال]

---

(١) مسخراً : أى : مذللاً ومقهوراً لخدمة الآدميين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) مما قاله المشركون في هذا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ، فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... (٢) ﴾ [يونس] . نقله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٢٣٢) .

ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا .

فالعداوة هى لرسول الله ، وهى عداوة حاقدة غير منطقية ؛ لأن كل واحد منكم كان إذا ملك شيئاً نفيساً عزيزاً عليه ، فهو لا يجد أميناً عليه إلا محمداً .

إذن : فلماذا لا تغشون أنفسكم فى مسألة استئمان محمد على الأشياء النفيسة ، ولو كنتم غير مؤمنين بصدقه . فلماذا استأمنتموه على نفائسكم ؟ أليس هو محمد بن عبد الله الذى هاجر وترك علىَّ بن أبى طالب ؛ ليرد الأمانات لأصحابها ؟

إذن : فلا محمد دون مستوى الرسالة والأمانة ، ولا القرآن دون المستوى ، بشهادتكم أنتم ؛ بشهادتى القول والفعل .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣) ﴾ [يونس]

وفى موقع آخر بالقرآن يقول سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وما دام هذا الخلق العجيب قد صدر منه ، فالتصرفات التى دون ذلك لا بد أن تكون مقبولة منه سبحانه وتعالى ، وأن تكون لحكمة ما . وتعالوا نتحاكم إلى أنفسكم ، أنتم تقولون : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ [1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا شك عندكم فى أن القرآن لا طَعْنَ فيه ، بل تطعنون فى مسألة

---

(١) يقصد بالقريتين هنا : مكة والطائف . واختلفت الأقوال فى تحديد هذين الرجلين ، فقيل : إنهما الوليد ابن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفى . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة . وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (٤/ ١٢٧) .

أنه جاء على يد محمد ﷺ ، وتمنيتم لو أن القرآن قد جاء على يد واحد آخر تقبلونه. وأنتم فى هذه المسألة غير منطقيين ؛ لأنكم تريدون أن تتدخلوا فى قسمة الله ورحمته فى أن يُنزِل الوحى على من تشاءون ، لا من يشاء هو سبحانه.

وأنتم بذلك تريدون أن تتحكموا فى الرحمة العليا من الله فى أن يختار رسولاً ؛ ليبلغكم عنه. وتتناسون أنكم فى هذه الدنيا لا تقسمون الأرزاق ؛ لذلك يقول الحق : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

فإذا كنتم تريدون أن تقسموا رحمة الله ، فاعلموا هذا القول من الله : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف]

وهذا الأمر السهل ؛ تقسيم المعيشة فى الحياة الدنيا تصرف فيه الحق سبحانه[1] ، فكيف لكم - إذن - أن تطمعوا فى تقسيم الأمر العلوى وهو رحمة الله العليا فى أن يرسل رسولاً.

والحق سبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ .

وساعة تسمع كلمة «رب» ينصرف الذهن إلى الخلق وإلى التربية ، ولذلك نحن نستعمل هذه الكلمة ونقول : «فلان رب هذه الأسرة» أى : أنه المتولى تربيتها ، وكلمة «الرب» بمعناها المطلق تنصرف إلى الله[2] ، فهو

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب» أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى ، وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف.

(٢) الرب فى اللغة يطلق على : المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربى ، والقيم ، والمنعم والصاحب . ولا يطلق غير مضاف إلا على الله عز وجل ، وإذا أطلق على غيره أضيف ، فيقال : رب كذا ، مثل رب الإبل ، رب الغُنَيْمة . انظر لسان العرب.

الخالق الذى خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْمٍ[1] ، وهو بهذا الوصف ربٌّ لكل خلقه : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وما دام الله سبحانه ربّاً لكل الخلق ، فهو الرازق لكل خلقه ، فهو الذى استدعى خلقه إلى هذه الدنيا ، وهو الذى يعطى كل مخلوق الرزق الذى كتبه الله له ، وهو سبحانه يأمر نواميس[2] الكون وأسبابه أن تعطى له أو لا تعطى ، فإن زرع الأرض وأحسن زراعتها ؛ أعطى سبحانه الأمر للأرض أن تعطى هذا المخلوق الرزق .

وكل مخلوق يأخذ بالأسباب ، يوفر له الحق النجاح فى الأسباب .

وأقول دائماً لمن يرون تقدم الكفار فى أمور الدنيا ، ويتساءلون : لماذا يتقدم الكفار فى أمور الدنيا ونتأخر نحن ؟ أقول لهم : لقد أخذوا من عطاء الربوبية فى الأسباب ، وأنتم لم تأخذوا من عطاء الربوبية . وعليكم أيها المسلمون أن تأخذوا بالأسباب ، وهى عطاء الربوبية ؛ حتى لا يسبقكم الكافرون إليها ، ولا تجلسوا فى موقع المتفرج ، بل المفروض فيكم أن تسبقوا الكفار إلى عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية ، وهو أن يُقرَّ الإنسان بأن الله هو المعبود بحق ، وهو المطاع فى «افعل» و«لا تفعل» ، فهذا العطاء لا يناله إلا مَنْ آمن به .

اذن : فالله رب الجميع ، ولكنه إله مَنْ آمن به . إذن : هناك فارق بين

---

(١) العَدَمُ، والعُدْمُ، والعُدُمُ : فقدان الشيء وانعدامه . وهذه المادة لم تردْ فى القرآن، بل جاء بمعناه مثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) ﴾ [الإنسان] .

(٢) نواميس الكون : الأسرار التى أودعها الله فى الكون، من قوانين تنظم حركة أجزائه ومكوناته . والناموس أيضًا : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره . ومنه الناموس : جبريل ؛ لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب اللذين لا يطلّع عليهما غيره .

عطاء الإله ، وهو المنهج المتمثل فى «افعل» و«لا تفعل» ، وعطاء الربوبية المتمثل فى الأمور المادية وهى شركة بين كل الناس: المؤمن والكافر، والطائع والعاصى . وحين يُحسن الكافرُ الأخذ بالأسباب ؛ فهو يأخذ نتائجها.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

إذن : فواجب على المؤمنين أن يستقبلوا عطاء الربوبية بحسن الأخذ بالأسباب ؛ ليأخذوا النتيجة ، ولا يتقدم أهل الكفر عليهم ؛ لأن الكافر حين يسبقك فى الأخذ بالأسباب ، ربما استغل هذه المسألة فى أن يفرض عليك ما يخالف دينك.

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ... (٣) ﴾ [يونس]

أى : أن الذى ربَّى ، هو الذى كلَّف ، ويجب أن تستمعوا إلى منهجه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... (٣) ﴾ [يونس]

وكلمة ﴿ سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ هذه وردت فى كل آيات القرآن التى تحدثت عن زمن مدة الخلق للأرض والسموات ، لكن هناك آية جاءت بتفصيل ويظهر من أسلوبها أن الخلق قد استغرق ثمانية أيام ، وهى فى سورة فصلت :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ [1] وَتَجْعَلُونَ لَهُ

(١) «يوما خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما، والمعنى فى تتمة أربعة أيام، وهى مع يومى خلق السموات ستة أيام . . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض، ويوم الثلاثاء والأربعاء للجعل المذكور فى الآية وما بعده، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» قاله أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن» ص ٣٧٣ . وانظر ابن كثير (٤/ ٩٣).

أندادا [١] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ [٢] مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا [٣] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ﴾ [فصلت]

وهذه ستة أيام.

ثم يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ [٤] سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫ ﴾ [فصلت]

وهكذا يكون المجموع ثمانية أيام، وهذا هو الفهم السطحي؛ لأن آيات الإجمال جاءت كلها بخبر الخلق فى ستة أيام. وتعلم أن كل مُجمل يفسره مُفصَّله إلا العدد؛ فإن مفصَّله محمول على مجمله، فالأرض خلقها الله فى يومين، وجعل فيها رواسى، وبارك فيها، وكل مخلوق ثان هو تَتمَّة للأول، فاليومان الأولان إنما يدخلان فى الأربعة الأيام، وأخذت بقية الخلق اليومين الأخيرين، فصار المجموع ستة أيام.

إذن: فالزمن تتمة الزمن. ولذلك تجد أن اليوم على كوكب الزهرة أطول من عامها؛ لأن عامها بتوقيت الأرض هو مائتان وخمسة وعشرون يوماً، أما طول اليوم فيها فهو بتوقيت الأرض مائتان وأربعة وأربعون يومًا.

إذن: فاليوم على كوكب الزهرة أطول من العام فيها. والسر فى ذلك أن كوكب الزهرة يخضع لدورة تختلف فى سرعتها عن سرعة الدورة التى

(١) الأنداد: جمع ندّ، وهو الشبيه والنظير والمثيل. والأنداد: الأصنام المعبودة من دون الله.
(٢) الرواسي: الجبال الثابتة الراسخة. وقد تحدث رب العزة عن حكمة خلق هذه الجبال فقال سبحانه: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ㉛﴾ [الأنبياء] أي: لئلا تتحرك بهم وتضطرب، فلا يصلح لهم عيش عليها.
(٣) الأقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والمقصود به الرزق مطلقاً.
(٤) قضى الشيء قضاء: صنعه وقدّره. فقضاهن هنا بمعنى: خلقهن وعملهن وصنعهن وقطعهن وأحكم خلقهن.

تخضع لها الأرض ، فدورة كوكب الزهرة حول نفسه بطيئة ، ودورته حول الشمس سريعة .

إذن : فكل كائن له نظام .

وما هو اليوم إذن ؟ اليوم فى اعتبارنا هو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار . ولكننا نجد القرآن الكريم يطلق كلمة اليوم ويفصلها عن الليل ، فيقول سبحانه : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ... (١٨) ﴾ [سبأ]

وهنا جعل الحق اليوم للضوء والكدح ، والليل للظُّلمة والراحة . والحساب الفلكى يسمى الليل والنهار يوماً .

ويبين القرآن لنا أن هناك يوماً للدنيا ، ويوما للآخرة ، ويوم الدنيا هو ما نحسبه نحن من شروق إلى شروق آخر ، وكذلك هناك يوم عند الله هو بحساب الدنيا يقدر بألف سنة مما يحسبه البشر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج]

ويقول الحق فى موضع آخر : ﴿ تَعْرُجُ [1] الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ [2] إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) ﴾ [المعارج]

إذن : فالأزمنة متعددة ، ومنوعة ، وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن

---

(١) تعرج ، أى : تصعد . عرج يعْرج عروجاً . وفيه ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) ﴾ [المعارج] ؛ المعارج : المصاعد والدرج . قال قتادة : ذى المعارج أى : ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة هي مصاعدها التى تصعد وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك . والقراء كلهم على التاء فى قوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ .. (٤) ﴾ [المعارج] إلا ما ذكر عن عبد الله ، وكذلك قرأ الكسائى .

(٢) للمفسرين فى لفظ الروح فى الآية هنا عدة أقوال هى :

١ - جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام (أى : الملائكة المذكورين قبله) .

٢ - اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

٣ - خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا أناساً .

كوكب إلى آخر. وما أظهره الله لنا في القرآن من الأزمنة إنما يدل على اختلافها، لا على التعارض والتناقض[١].

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ووقف العلماء عند كلمة «اسْتَوَىٰ»[٢] طويلاً، واستعرضوا القرآن كله؛ ليحصروها في كتاب الله؛ فوجدوها قد جاءت في اثنتي عشرة سورة: البقرة والأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والقصص والسجدة وفصلت والفتح والنجم والحديد.

وأول سورة جاء فيها ذكر استواء الله على العرش هي «الأعراف» يقول الحق: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي[٣] اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا[٤] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) فاليوم الذي كألف سنة، أي: كل يوم من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، ونص عليه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية».

- أما اليوم الذي كخمسين ألف سنة ففيه أربعة أقوال:

١- المراد به مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة.

٢- مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة.

٣- المراد به يوم القيامة. جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة.

(٢) سئل الإمام مالك بن أنس: استوى كيف استوى؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ... ﴿١٤﴾﴾ [القصص] قال أبو منصور: كلام العرب أن المجتمع من الرجال والمستوى الذي تم شبابه وذلك إذا تمت له ثمان وعشرون سنة، ويحتمل أن يكون بلوغ الأربعين غاية الاستواء وكمال العقل. [اللسان: مادة (سوا)].

(٣) غشَّيتُ الشيء تغشية إذا غطّيته، وغَشِيَه الأمر وتغشاه وأغشيته إياه. يقول تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ... ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]. وقال اللحيانيّ: وقرىء (يُغَشِّي). وقرىء في الأنفال: ﴿يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ... ﴿١١﴾﴾ [الأنفال] و(يغشِّيكم)، و(يغشاكم). وغشاء كل شيء: ما تغشاه كغشاء القلب والسَّرْج والرَّحْل والسيف ونحوها. وغَشِيه يغشاه غشيانا إذا جاءه، وغشّاه تغشية إذا غطاه. وغَشِيَ الشيء إذا لابسه، قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل]. وقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس]. [اللسان: مادة (غشا)].

(٤) حثيثاً أي: مسرعاً حريصاً. ورجل حثيث ومحثوث: حادٌّ سريع في أمره كأن نفسه تحثُّه. والحثُّ: الإعجال في اتصال، وقيل: هو الاستعجال. وحثَّه واحتثَّه، أي: حَضَّه وشجَّعه على فعل شيء. [اللسان: مادة (حثّ)].

مُسَخَّرَاتٍ[1] بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف]

ومادام الله سبحانه هو الذى خلق فلا تعترض أن يكون الأمر له ، وأن يبعث سبحانه من شاء ؛ ليكون رسولاً ؛ لذلك فلا عجب أن أرسل لكم رجلاً منكم ؛ لأنه لو كان هناك غيره سبحانه هو الذى خلق ، ثم جاء ليفتئت[2] فيأمر فيما خلق ، لكان للخلق شأن آخر ، لكن الله هو الذى خلق ، وهو سبحانه الذى أرسل الرسول ﷺ .

والآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول فيها الحق : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، أى : استتب له الأمر .

ثم تأتى آية سورة الرعد : ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد]

أما الصفات التى توجد فى البشر ، ووصف الله نفسه بها ، هذه الصفات لا تؤخذ على مقتضى ما هى فى البشر ، فكل إنسان هو ممكن الوجود . ولكن الحق سبحانه وتعالى هو واجب الوجود ؛ لذلك تؤخذ تلك الصفات فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ... (١١)﴾ [الشورى]

ومثال هذا : أن الحق سبحانه وتعالى له علم بأنك تقرأ الآن فى التفسير ، وفى أى مكان تقرأه ، والذين من حولكَ يعلمون ذلك ، ولكنْ أعلْمُ الله يساوى علمَك وعلمَ مَنْ حولك ؟ لا ، فعلمه سبحانه وتعالى هو

---

(١) النجوم مسخّرات : جاريات مجاريَهُنَّ . وتسخير الشمس والقمر والنجوم للناس هو الانتفاع بها فى بلوغ منابتهم ، والاقتداء بها فى مسالكهم ، والتسخير : التذليل . [اللسان : مادة (سخر)] .

(٢) يفتئت : يختلق ويكذب .

علْم أزلىّ [1] ، علْم قبل أن توجد أنت أو يوجد غيرك ؛ لذلك فأنت إذا عَلمت شيئاً ، وَعَلَمَ الله شيئاً ، فعلْم الله يناسبه ، وعلْم البشر يناسبك. وأىُّ صفة من صفات الله مطلقة ، وَأىُّ صفة من صفاتك نسبية ؛ لأن الحق سبحانه هو واجب الوجود الأزلى ، وأنت فى هذه الحياة مجرد حدث محدود العمر بين قوى الميلاد والموت.

فالله غنى ، وقد تكون أنت غنياً ، لكن غناك لا يمكن أن يتساوى مع غنى الله . وأنت موجود والله موجود ، ولكن وجود ك لا يمكن أن يُقَاس بوجود الله . فذاتُ الله ليست كذواتنا ، وكذلك صفات الله ليست كصفاتنا ، وفعْله ليس كفعْلنا ، واستواؤه سبحانه ليس كاستوائنا ، بل فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لأن الذى يُفْسد الفهم أن يقال : «استوى» بمعنى : قعد . أو فلنأخذ الاستواء كتمثيل لَلسيطرة ، وسبحانه مسيطر على كل شيء ، والاستواء : يعنى التمكن. وسبحانه القائل : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ [2] أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ... ﴿١٤﴾﴾ [القصص]

إذن : فاستوى : تعنى بلوغ تكوين الكمال فى الذات. والإنسان منا وهو صغير - قبل البلوغ - إنما تنقصه بعض من درجات النضج فى الجهاز العصبى ، وكذلك فى الجهاز التناسلى ، فإذا ما بلغ اكتمل النضج ، ويقال: (اسْتَوَى) أى: صار قادراً على إنجاب مثله ، وتمت له رجولته . ويقال عن الثمرة : إنها استوت ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح]

أى : نضجت نُضْجاً يبلغها أن تعطى من ثمرتها مثل ذاتها ، وبذلك تضمن بقاء نوعها.

---

(١) الأزَلُ : هو القِدَم. ومنه قولهم : هذا شيء أزلىّ ، أى : قديم. وقيل : إن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم : لَمْ يَزَلْ ، ثم نُسِبَ إلى هذا فلم يستقم إلا بالاختصار ؛ فقالوا : يَزَلىّ ، ثم أبْدِلَت الياء ألفاً ؛ لأنها أخفُ فقالوا : أزلىّ.

(٢) المقصود هنا هو موسى عليه السلام ، أى : لما اكتمل تكوينه ، وقيل : إن هذا يكون عند سن الأربعين.

وحين بلغ الطوفان تمامه استوت مركب سيدنا نوح ومعه المؤمنون من قومه ، وقال الحق : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ [(١)] ... (٤٤) ﴾ [هود]

أي : استقرت على الجبل واستتب الأمر.

إذن : فكل استواء لله يجب أن يؤخذ على أنه استواء يليق بذاته ، وصفاته ، التي قد يوجد في البشر مثلها ، لكنها صفات مطلقة في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى]

وفعل الله لا يمكن أن يتساوى مع فعل البشر ؛ ولذلك قلنا في حديث الإسراء [(٢)] : إن الكفار المعاصرين للإسراء حينما كذَّبوا النبي ﷺ في أنه قد أسرى به ، قالوا : أتدَّعي أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ [(٣)] وهذا القول المستنكر يؤكد أنهم قد فهموا أن الإسراء قد حدث حقيقة.

ورغم ذلك تجد بعض المعاصرين - الذين يدعون المعاصرة والفهم - يتساءلون : ولماذا لا تقولون : إن الإسراء قد تَمَّ بالروح ؟ ونقول لهم : إن كفار قريش أنفسهم الذين عاصروا رسول الله ﷺ لم يقولوا ذلك ، وفهموا أن الإسراء قد تمَّ بالجسد ؛ لذلك قالوا : «أنضرب إليها أكباد الإبل شهراً ،

---

(١) الجودي : موضع ، وقيل : جبل ، قال الزجاج : هو جبل بآمد ، وقيل : جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام.

(٢) أسْرَيْت وسَرَيْت إذا سرْت ليلاً . يقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ... (١) ﴾ [الإسراء] وأسرى بعبده : سَيَّرَ عَبده . وأسراه ، وأسرى به بمعنى واحد . ويقول تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) ﴾ [الفجر] معنى يَسْر : يمضي . أو يُسْرَى فيه . وقد حدث الإسراء برسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنة ، وقيل بستة عشر شهراً.

(٣) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البين ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ (سيرة النبي لابن هشام ٢/ ٤). والإمْرُ : هو الشيء العظيم العجيب المنكر.

وتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ؟» بل ، ولم يقولوا له : إنه رأى بيت المقدس فى رؤيا أو حُلْم [(١)] ؛ لأنه لا أحد يُكذِّب رؤيا أو حُلْماً ، وهكذا كان تكذيبهم دليلاً على التصديق للإسراء إلى أن تقوم الساعة.

ونقول لمن يدَّعى أن الإسراء إنما تَمَّ بالروح : افهم جيِّداً أن رسول الله ﷺ قال : «أسرى بى».

إذن : فعْل الإسراء منسوب لله ، فلا تأخذ الإسراء بالقانون البشرى ، ولكن بالقانون الإلهى.

والزمن فى مسألة الإسراء منسوب لله ، لا لمحمد ﷺ . والقرآن يقول :
﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ۝١ ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق قد قال : (سُبْحَانَ) أى : أن الله مُنَزَّهٌ عَمَّا فى بال البشر من المسافات والقوة وغيرها.

ولقد ضربنا مثلاً لهذا - ولله المثل الأعلى - برجل يصعد بابنه الرضيع قمة جبل « إفرست » ، فلا يقال : وهل يصعد الرضيع قمة الجبل ؟ فالصعود منسوب هنا للرجل ، ولقدرة الرجل وقوته ، لا إلى الطفل.

وهكذا - ولله المثل الأعلى - فالزمن والقدرة على الإسراء منسوبان لله سبحانه ، لا إلى محمد ﷺ .

ونحن فى مجالنا البشرى تختلف قدراتنا فى قطع المسافات وأزمانها ، فمن يركب عربة يجرُّها حصان فقد يصل من القاهرة إلى الإسكندرية فى

---

(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحِجْر ، فجلا الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٣٧٧) ، والبخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠). فوصف لهم رسول الله ﷺ بيت المقدس باباً باباً ونافذة نافذة وأعمدته والطريق إليه. وهذا لا يعقل أن يكون حُلماً أو رؤيا مهما كانت رؤيا صادقة أن تكون دالة على كل هذه التفاصيل.

أيام ، ومَنْ يركب سيارة فقد يصلها في ساعتين. ومَنْ يركب طائرة فقد يصلها في نصف ساعة.

إذن : فكلما زادت القوة تجد الزمن يقل ، فما بالنا بقوة القويّ ؛ أيكون معها زمن؟ طبعاً لا.

وقال الحق سبحانه لسيدنا نوح : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ[1] .. (٢٨)﴾ [المؤمنون]

أي : بعد أن ركب معك يا نوح مَنْ آمن من قومك ، واطمأننت على نجاتهم ، ستسير السفينة بإذن ربها.

إذن : فقول الحق عن ذاته : ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ... (٣)﴾ [يونس]

يعني : أن الأمور قد استتبت وتمت. وهكذا نفهم أن كل شيء يتعلق بالحق سبحانه وتعالى نأخذه في إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١)﴾ [الشورى]

وأن كل صفة من صفاته يأتي تمثيلها ليقرب المعنى فقط ولا يعطي حقيقة المعنى ؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء. وهكذا فسبحانه له استواء يليق بذاته ، لا كاستواء البشر.

والشاعر أبو تمام[2] حين جاء ليمدح الخليفة المعتصم ، نظر إلى الصفات التي اشتهر بها بعض القوم ، «فحاتم» على سبيل المثال كان قمة الكرم.

---

(١) الفُلْك : السفينة ، تُذكَّر وتؤنَّث ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع. قال تعالى : ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾ [الشعراء] ، وقال : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ... (١٢)﴾ [فاطر] ، وقال : ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ .. (١٦٤)﴾ [البقرة] وقال : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم .. (٢٢)﴾ [يونس].

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠ هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك توفي (٢٣١ هـ) عن ٥١ عاماً.

و«عنترة»[١] هو قمة الشجاعة ، «والأحنف بن قيس»[٢] قمة الحكمة ، فقال الشاعر أبو تمام عن الخليفة :

إِقْدَامُ[٣] عَمْرٍو فى سَمَاحَة حَاتِمٍ   فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكاء إِيَاسِ

وهكذا صار الخليفة مَجْمع فضائل ؛ لأنه أخذ إقدام عمرو ، وكرم حاتم ، وحلم الأحنف ، وذكاء إياس. ولكن حاسد الشاعر قال : إن الأمير فوق كل من وَصَفْتَ ، فهؤلاء جميعاً بالنسبة للخليفة صغار. وقال أحد الشعراء :

وشبهه المدَّاح فى البأس[٤] والنَّدى[٥]   بِمَنْ لو رآهُ كان أصغَرَ خادِمِ
ففى جَيْشِهِ خَمسُونَ أَلْفاً كَعَنْتَرٍ   وَفى خزَائنه أَلفُ أَلفِ حاتِمِ

وحين سمع الشاعر الأول ذلك ، وكانت قصيدته الأولى «سينية» ، أى : أن آخر حرف فى كل أبياتها هو حرف السين ، فجاء بأبيات أخرى من نفس بحر القصيدة الأولى ، وقال :

لا تُنكِروا ضَرْبى له مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَروداً[٦] فى النَّدَى والباسِ[٧]
فالله قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لنوره   مثلاً من المشْكَاة[٨] والنِّبراسِ[٩]

---

(١) هو : عنترة بن شداد ، أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، من أهل نجد ، أمه حبشية اسمها زبيبة . توفى نحو ٢٢ قبل الهجرة .

(٢) هو : الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، يضرب به المثل فى الحلم ، ولد فى البصرة (٣ ق هـ) وأدرك زمن النبى ولم يره ، توفى بالكوفة (٧٢ هـ) عن ٧٥ عاماً .

(٣) الإقدام : هو المضىّ إلى الأعداء بجراءة وشجاعة .

(٤) البأس : الشدة فى الحرب. ورجل شديد البأس : شجاع .

(٥) الندى : السخاء والكرم والجود .

(٦) مثلاً شروداً : خارجاً عن المألوف والعادة .

(٧) الباس : هو البأس . خففت همزتها لضرورة الشعر .

(٨) المشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ«الطاقة» ، مع نطق القاف همزة .

(٩) النبراس : المصباح والسراج : والشاعر هنا يقصد قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ... (٣٥) ﴾ [النور] .

إذن : فهناك فَرْق بين تمثيل الشيء ، وبين حقيقة الشيء ، فحين قال الحق : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ...(٣٥) ﴾ [النور]

فهذا مثل توضيحى للبشر . وشاء الحق ذلك ليعطينا مجرد صورة ؛ لأنه يتكلم عن أشياء لا وجود لها عندك . ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول عن الجنة : « فيها ما لا عَينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعتْ ، ولا خَطَرَ[1] على قلب بَشَر »[2].

وأنت حين ترى ؛ فللرؤية حدود . وحين تسمع فأنت تسمع مرائى غيرك ، وما لا يخطر على البال هو القمة ، فقد ارتقى الرسول فى وصفه للجنة من حدود ما تراه العين إلى آفاق ما تسمعه الأذن ، ثم ارتقى من حدود السمع إلى ما لا يخطر على البال ؛ لأنه ﷺ علم أن اللغة هى ألفاظ تعبر عن معان ، والمعانى توجد أولاً ثم نأتى لها بالألفاظ ؛ ولذلك فالأمثال لمجرد التوضيحِ باللغة .

وهكذا نكون قد استوفينا فهم قوله الحق : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ بما يليق بذات الله ، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذى يدل على مكان محيّز ؛ لأنه سبحانه مُنَزَّه عن أن يكون متحيزاً فى مكان ؛ فذاته سبحانه ليست كالذوات ، وفعله ليس كالأفعال ، وصفاته ليست كالصفات.

---

(١) خطر : الخاطر : ما يخطر فى القلب من تدبير أو أمر ، والخاطر : الهاجس . ويقال : خطر ببالى وعلى بالى كذا إذا وقع ذلك فى بالك ووهمك . والجمع : خواطر .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال ﷺ فى آخر حديثه : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) وأحمد (٥/ ٣٣٤) من طريق ابن وهب عن أبى صخر به إلى سهل بن سعد ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٤١٣) من طريق عبد الله بن سويد عن أبى صخر به . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى : أنه يرتب الوجود ترتيباً يجعل كل شىء موضوعاً فى مكانه بحكمة. والحق سبحانه وتعالى له صفة علم ، وصفة إرادة ، وصفة قدرة ، وصفة العلم هى التى تضع كل شىء فى مكانه بحكمة. وصفة الإرادة هى التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه. وصفة القدرة تبرز المراد لله.

إذن : فهناك علم ، وهناك إرادة ، وهناك قدرة تبرز المراد على وفق العلم. ومن المنطقى أن يدبر الله كل أمر ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق السموات وخلق الأرض. واستوت له الأمور بحيث لم يعد هناك خلق جديد إلا ما يبرزه بـ «كن». وهو سبحانه بعد أن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وسخَّر له السموات والأرض ؛ لذلك لا بد أن يدبر سبحانه للإنسان أمور مادياته ، وأمور قيمه.

أما أمور الماديات فقد ظهرت فى خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والماء والهواء. وما فى الأرض من عناصر تنبت للإنسان ما يحتاج إليه فى قوام حياته ، وهو سبحانه الذى خلق كل ذلك قبل أن يخلق الإنسان ، ثم جاء بالإنسان ليكون الخليفة والسيد.

إذن : فالإنسان هو الذى طرأ على هذه الأمور المادية ، وكان لا بد أن يُنزِلَ الحق سبحانه قيماً يحيا بها الإنسان كخليفة فى هذه الأمور المادية.

وهكذا خلق الله القيم المعنوية ، فلا تقولوا : لماذا أرسل رسولاً لايُحسب فى نظر بعض الناس من عظماء أقوامهم ، ولا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد؛ لأن هذا الإرسال هو من ضمن تدبير الأمور ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾[1] [الأنعام]

(١) قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾ [الأنعام] جاء رداً على من قال الله سبحانه فيهم : ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام].

إذن : فقوله : ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جاء ليؤكد نَفْى التعجب من أن يكون الوحى لمحمد ﷺ : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا .. (٢)﴾ [يونس]

وعلتها أن الله هو ربكم وهو الذى خلق ، ولا يجادل أحدٌ الله فيما خلق ، وفيمن خلق. وإذا كان هو سبحانه الذى خلق الإنسان والكون ، فلا بد أن ينظم حركة الوجود بين الإنسان والكون ؛ لذلك اختار الرسول المناسب ؛ ليحمل منهج القيم للإنسان فى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا». ثم ترك الحق للإنسان أموراً لا يقول له فيها : افعلها أو لا تفعلها ، فهى من المباحات.

وإذا استقرأت الأفعال والأحداث ، ستجد أن الذى قال الله فيه «افعل» قليل ، والذى قال الله فيه « لا تفعل» قليل. وبذلك تجد المباحات أكثر من «افعل» وأكثر من «لا تفعل» [1].

وما دام سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وترك لك أيها الإنسانُ الكثير من الأمور المباحة ، فاترك القيم لله ؛ لأن الكون المادى المخلوق لله فى غاية الدقة وفى غاية النظام ، ولم تمتنع الشمس أن تشرق أو تعطى ضوءها وحرارتها للناس ، وما امتنع القمر أن يعطى نوره ، وما امتنع السحاب أن يسقط مطراً مدراراً ، وما امتنعت الأرض أن تتفاعل مع أى غَرْس تغرسه فتعطيك الغذاء ، وكل شىء داخل فى نطاق القدرة فى النواميس العليا ؛ مُحكم ؛ ولا خلل فيه [2].

---

(١) ولهذا نجد أن المحرمات منصوص عليها في القرآن من نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ... (١٥١)﴾ [الأنعام] ولذلك تعارف الفقهاء على قاعدة فقهية هى : الأصل فى الأشياء الإباحة.

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب». أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٧) والحاكم فى مستدركه (١/ ٣٣) (٢/ ٤٤٧) (٤/ ١٦٥) وصححه ووافقه الذهبى. وعزاه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٨) لأحمد وقال : «رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف».

وإذا نظرتم إلى غير ذلك وجدتم الخلل قد حدث ؛ لأن الشيء الذى لا تدخل فيه قدرة الإنسان وإرادته هو على أتم ما يكون من النظام ، ولا يفسد إلا الشيء الذى للإنسان فيه عمل واختيار ، ولا يعنى ذلك أن كل أعمال الإنسان تعانى من الخلل ، لكن الأعمال التى تعانى من الخلل هى الأعمال التى يُقبل عليها الإنسان دون منهج الله . ولو اخترنا البدائل على ضوء منهج الله ، لاستقامت القيم كلها، كما استقامت لنا نواميس الكون العليا [1].

فإذا رأيتم فساداً فلوموا أنفسكم ؛ لأن الأمر الذى لا تتناولونه بأيديكم ولا دخل لكم فيه ، يعمل غاية فى الدقة ، فإن أردتم أن تعمل أموركم الاختيارية بغاية الدقة ؛ فخذوا منهج الله فى الأفعال ، ولا تفسدوها أنتم بأن تختاروا البدائل على غير مرادات الله.

ولذلك أقول دائماً : إنك إذا ما رأيت عورةً فى الوجود ، يتعب منها المجتمع ، فاعلم أن حداً من حدود الله قد عُطِّل . وإن وجدت أمة متخلفة ، فاعلم أنها عطلت حدود الله ، وإن وجدت أمة تعانى من أمراض اجتماعية جسيمة ، فاعلم أنها لا تطبق منهج الله.

ويخطىء مَنْ يقصر فَهْمَ عبادة الله على أنها الانقطاع فى المسجد ، أو الصوم ، أو إخراج الزكاة فى ميعادها ، أو الذهاب إلى الحج ، فكل هذه هى رءوس الإسلام تشحن العبد ليعمل وَفْق منهج الله ، فالصلاة هى إعلان الولاء لله خمس مرات فى اليوم ، ومدة الصيام شهر كل عام ،

(١) قال سبحانه وتعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم] والفساد هنا قد يكون النقص فى الزروع والثمار على البر وأخذ السفن غصباً فى البحر فيما كان يعرف بأعمال القرصنة ، وقد يكون خللاً يحدث فى البيئة .

والزكاة إنما هى من فائض المال ، والحج هو تَرْكٌ للمال والأهل والولد.

كل ذلك من أجل شحن الطاقة ، فإذا ما شحنت الطاقة ، فوجِّه الطاقة إلى عمل آخر. ولنأخذ الصلاة مثلاً : فأنت تحتاج إلى طاقة تُقيمك وتُقعدك وتستبقى حياتك ؛ وقوة حركتك تحتاج كل ذلك لتصلى!

إذن: فأنت تحتاج إلى طعام ، ولن تُطْعم ما لم يكُنْ لك عمل يتيح لك شراء الطعام ، وحتى يبيع لك التاجر الخضر واللحم ، والفاكهة والخبز ، هو يحتاج إلى مَنْ ينتج ذلك ، ومَنْ ينتج الأطعمة يحتاج إلى مَنْ يدرس طبيعة الأرض والبذور ومعرفة الأوقات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى أجهزة منظمة لإنتاج الطعام . فمن يزرع يحتاج إلى محاريث تحرث ، وهذا يستلزم وجود الحديد وآخرين ليصهروه ويستخرجوا منه ما يصلح لصناعة المحاريث.

إذن : فقيامك إلى الصلاة يحتاج إلى كل هذه الأعمال. وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى تُسهِّل لك العبادة هى أعمال واجبة. والمثال : أنك حين تصلى تحتاج إلى سَتْر عورتك ؛ لذلك تشترى القماش ليُفصِّل لك الخائط ما ترتديه من ملابس ، وكل هذه الأعمال التى تنتج القماش وتصنع الثياب هى أعمال واجبة ، بدءاً من زراعة القطن أو الكتان أو التيل وغيرها إلى المغازل ومصانع النسيج ، وغير ذلك. وهكذا تجد أن كل الأعمال التى يتم الواجب بها هى أعمال واجبة ، فَسَتْر العورة أمر شرعى ، وهكذا يتسع مفهوم العبادة ليكون معناها : كل حركة تؤدى إلى إبقاء الصالح على صلاحه وزيادة الصالح إلى ما هو أصلح.

والمثال الذى أضربه دائماً : هو حاجة الإنسان إلى الماء للشرب ،

والغُسْل من الجنابة[1] وطهو الطعام وغير ذلك ، وكان الإنسان قديماً يشرب من الآبار ، ثم تطور التفكير إلى إقامة شبكات لتوزيع المياه بعد تنقيتها ، كل هذه أعمال تُزيد الأمر الصالح صلاحاً ؛ لأنك أخذت الماء من المطر الذى ملأ النهر ، وأعليْتَ الماء فى خزانات لتنقيته ، ثم اكتشفت قوانين الاستطراق[2] ومضخات المياه ؛ ليصل الماء الطاهر إلى كل من يحتاجه. وهكذا تزيد الصالح صلاحاً بالتفكير واستخدام العلم بما يفيد الإنسان ، إذن : فهذا عمل عبادى ما دامت النية فيه لله .

وانظر إلى يوم السوق فى أى قرية ، تجد من يدخله ومعه الماشية والأنعام[3] التى يرغب فى بيعها ، وتجد مَنْ يدخل بالفواكه والأطعمة ، ومَنْ يدخل ومعه الثياب أو أدوات المنزل ، وتجد من يدخل ليس معه شىء ، وبعد انتهاء السوق تجد كل إنسان قد خرج بما يحتاج ، لا بما دخل لبيعه . وهكذا ألقى الله الخواطر فى قلب وتفكير إنسان ما ليبيع ما لا يحتاجه ، وآخر ليشترى ما يحتاجه من إنتاج غيره .

وأنت إذا نظرت إلى قرية ما ، ستجد واحداً من أعيانها يرغب فى بيع أرضه وقصره ، ويرغب فى الرحيل إلى بلدة أخرى ، وهكذا ترى الميزان الاقتصادى الإلهى ، الذى يوزع العباد فى الأماكن التى تليق بكل واحد

---

(١) الجنابة : إنزال الرجل ماءَه من جماع أو نوم ، وسُمِّى الرجل جُنُباً لأنه يجتنب الصلاة والطواف حال جنابته . ويجب عليه الاغتسال غُسْل الجنابة وله كيفية ذكرتْها سنة رسول الله ﷺ ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله ﷺ إذا اغتسل من الجنابة يبدأ فيغسل يديه ، ثم يُفرغ بيمينه على شماله ، فيغسل فرجه ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يأخذ الماء ، فيدخل أصابعه فى أصول الشعر ، حتى إذا رأى أن قد استبرأ حَفَن على رأسه ثلاث حفنات ، ثم أفاض على سائر جسده ، ثم غسل رِجْليه» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣١٦) والبخارى فى صحيحه (٢٤٨) بنحوه .

(٢) الاستطراق : عدَّة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية] .

(٣) الأنعام هى : الإبل والبقر والغنم . ومثلها الماشية ، ومعنى المشاء : النماء . فالماشية أى : التى تنمو وتكثر . ولفظ الأنعام جاء به القرآن ٤٢ مرة ، بل نزلت سورة باسمها وهى سورة الأنعام .

منهم ، فإذا ما زاد واحد عن الحاجة فى مكان ، فهو يرحل إلى مكان آخر يحتاجه. وهذا هو التدبير الإلهى على أحسن ما يكون.

وقد تجد - مثلاً - الطفل يكتب بيده اليسرى ، على عكس أقرانه ، وقد تضربه على ذلك ، فيعجز عن الكتابة باليمنى وباليسرى ، وحين يقول لك الطبيب : لقد شاء الله أن يجعل ابنك موهوباً فى الخط الجميل ، وهو يكتب بيده اليسرى ، فأنت تتعجب ، وتكتشف بالفعل أن خط الطفل باليد اليسرى جميل.

وأقول دائماً لمن يشكون أن بعضاً من أولادهم يكتبون باليد اليسرى أو يأكلون باليد اليسرى ، أقول لهم : إن هذه مسألة تتعلق بالجهاز العصبى للإنسان ، فهناك من خلقه الله لِيَعْملَ باليد اليمنى ، وهناك من خلقه الله ليعمل باليد اليسرى [1] ، وهناك من خلقه الله ليعمل بيديه الاثنتين ، مثل سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان «أضبط» [2] أى : يعمل بيديه الاثنتين .

وعلينا أن نحترم أقدار الله فيما خلق ومَنْ خلق. فسبحانه يخلق ما يريد ، لا وَفْق قوالب ، بل يخلق ما يشاء ، ومع كل خَلْق مراد معين. وكما أحسن الحق تدبير ما ليس لكم دَخْلٌ فيه ، فاعلموا أنه قد أنزل المنهج

---

(١) المقصود به هنا من خُلق هكذا لا يستطيع أن يستخدم يمينه ، أما الذى يستطيع استخدام يده اليمنى ولكنه يأكل أو يشرب أو يرتدى بشماله ويفضلها على اليمنى فقد خالف استحباب استخدام اليد اليمنى الذى وردت به سنة رسول الله ﷺ ، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢٠) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢٨).

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال : «كل بيمينك». قال : لا أستطيع. قال : لا استطعت. ما منعه إلا الكبر. قال : فما رفعها إلى فيه. أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٢١) فهذا الرجل استنكف أن يطيع رسول الله ﷺ فى مثل هذا الأمر لا أن عنده عذراً خلقياً أو شرعياً يمنعه ، ولذلك دعا عليه رسول الله ﷺ ، فشُلَّت يده.

(٢) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه. ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة : ضبط).

لِيُحسِّن مما لكم فيه دَخْلٌ ، ويجعل أموركم منتظمة ، وكل ذلك يدخل ضِمْن تدبير الأمر.

وأنت إذا نظرت إلى معنى كلمة «أمر» تجد أنها كل شيء ينشأ ، ولماذا عدل سبحانه عن قول : «شيء» إلى قول : «أمر» ؟ ؛ لأن كل شيء لا يوجد في الوجود إلا بـ «كن» وهي أمر. وسبحانه القائل : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس]

وسبحانه يدبر الأمر في السنن المادية التي لا تتناولها يد الإنسان ، فإن أراد الإنسان أن يضبط أمور حياته ، فليأخذ بالمنهج الذي أنزله الله بـ «افعل» و«لا تفعل» ، وأما المباحات فهي كثيرة ، والإنسان حرٌّ فيها.

وإذا ما سأل سائل : ولماذا أتَّبِع المنهج؟ أقول : إن الحق شاء أن يخلق الإنسان على هيئتين : هيئة إرغامية [1] قهرية ، وهيئة اختيارية ، فأنت أيها الإنسان مقهور في أشياء ، ومُختار في أشياء أخرى ؛ أنت مقهور في التنفس ، وتتنفس آلياً دون تدخُّل منك ، تتنفس مستيقظاً أو نائماً ، ولو كان التنفس باختيارك ، لاحتجْتَ إلى مَنْ يدير حركة تنفسك وأنت نائم ؟

إذن : فمن رحمته سبحانه أن جعلك مقهوراً في مثل هذه المسألة وكذلك نبضات قلبك ، أنت مقهور فيها ، وكذلك أنت مقهور في الحركة الدودية للأمعاء ، وللحركة الانبساطية والانقباضية في المعدة ، وإفراز العصارات الهضمية ، كل ذلك أنت مقهور فيه ، وأنت مُختار في أشياء أخرى ، كأن تشتري من البائع الفلاني ، أو بائع غيره ، وأنت مُخَيَّر في أن تختار أصناف الطعام التي تهواها.

(١) أرغمه : حَمَلَه على ما لا يقدر أن يمتنع عنه. والرُّغْم : القسر والإجبار.

والمباحات فى الوجود كثيرة ، وما أكثر ميادين الحرية فى الحياة ، وما حدده لك الحق سبحانه وتعالى بـ«افعل» و«لا تفعل» ، لا يخرج عن أمور محصورة تصونك وتصون مجتمعك ، وكذلك الكون الذى تحيا فيه. وإنْ مارستَ أيها الإنسان حريتك فى الأمور المباحة على أى لون شئت ، فذلك لا يفسد الكون.

وقد شاء الحق سبحانه - أيضًا - أن تكون مقهوراً فى بعض الأمور حتى لا يفسد الكون ، فإن أكلت ما شئت من المأكولات غير المحرمة ؛ فأنت حُرٌّ ، وإن سلك كل إنسان كما يهوى فى الأمور المباحة ؛ فلا مانع لذلك. وكل البشر يختلفون.

وأراد سبحانه أن يحمى الإنسان والكون ؛ لأنه علم أزلاً أن أهواء البشر تتضارب ، وهو القائل : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ [1] لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ...(٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولهذا نرى أن تدبير الله فيما لا دخل لنا فيه ، تدبير مُحكَم ، وما يسير بدون تَدَخُّل من البشر إنما يتبع نظاماً مستقيماً ، وشاء الحق أن يجعل نواميس الكون تعمل بدقة يندهش لها المؤمنون بالله والكافرون به [2] ، فسبحانه يحكم فى مُلْكه بدقة متناهية ؛ حتى إن بعض العلماء ممن لا يؤمنون بمنهج الله قد حددوا مواعيد الكسوف الكلى أو الجزئى

---

(١) هَوَى النفس : إرادتها ، والجمع : أهواء. والهوى : محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) ﴾ [النازعات] أى : نهاها عن شهواتها ، وما تدعو إليه من المعاصى. ومتى تُكُلِّم بالهَوَى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى يُنعت بما يُخرِج معناه ، كقولهم : هَوَى حَسَنٌ ، وهَوَى موافقٌ للصواب.

(٢) نواميس الكون : أسراره. والناموس فى اللغة : صاحب سر الملك أو الرجل الذى يطلعه على سره وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره.

للشمس أو القمر [١] بدقة متناهية وذلك باستقرائهم لمعطيات الكون.

وما دُمْتم أنتم تتميزون على الكافرين بالإيمان بالله ، فخذوا منهج الله فى حياتكم ؛ لتستقيم أموركم بمثل استقامة الكون.

ولذلك قال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ... ③ ﴾ [يونس]

ويضيف : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ [٢] إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ وجاء الحق بمسألة الشفاعة بعد مسألة تدبير الأمر ؛ لأن هؤلاء الكافرين الذين تعجبوا من إرسال الله لرسوله ﷺ ، كانوا يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : إن تلك الأصنام تشفع لهم عند الله ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ..⑱﴾ [يونس]

ولذلك يُفصِّل الحق سبحانه مسألة الشفاعة. فالإنسان لا يحتاج إلى شفاعة عند مَنْ يملك الأمر إلا إذا ارتكب جُرْماً أو حدث منه تقصير فى أمر ما . والآية أوضحت أنهم يعبدون ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ، وما لا ينفعهم إن عبدوه ، وأقروا أن مثل هذه الأصنام إنما تشفع لهم ، والشفاعة من الشفع ، والشفع ضد الوتر. والوتر هو ما لا يقبل القسمة على اثنين ، فيكون الوتر رقماً فردياً [٣].

---

(١) الكسوف : احتجاب نور الشمس ، أو نقصانه ؛ بوقوع القمر بينها وبين الأرض. وهو للشمس كالخسوف للقمر.

(٢) شفيع : صيغة مبالغة من (شافع) وهو الذى يشفع أى : يطلب العفو لشخص آخر ، والشافع : الطالب لغيره. والجمع : شفعاء. قال تعالى : ﴿من يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ... ⑧⑤﴾ [النساء].

(٣) الشفع : خلاف الوَتْر ، وهو الزوج. تقول : كان وَتْراً فشفعته شفعاً. وشَفَعَ الوَتْرَ من العدد شفعاً أى : صَيَّره زوجاً. والشفيع من الأعداد : ما كان زوجاً . تقول : كان وَتْراً فشفعته بآخر. قال تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③﴾ [الفجر]. قال الأسود بن يزيد : الشفع هو يوم الأضحى والوتر يوم عرفة. وقال عطاء : الوتر هو الله ، والشفع خَلْقُه. وقال ابن عباس : الوتر آدم شُفِعَ بزوجته. وقيل فى الشفع والوتر : إن الأعداد كلها شفع ووتر.

والعبد من هؤلاء له موقف من الإله الذى يعبده ، وهو غير قادر على مواجهته ؛ لأنه مقصر ، فبدلاً من أن يقابله فرداً يأتى بآخر معه ؛ ليشفع له ، وهكذا يكون معنى الشفع هو تعضيد[1] الفرد بواحد آخر ؛ فينتقل من كونه وتراً إلى كونه شفعاً.

وكان الكفار على عهد رسول الله ﷺ يقولون عن تلك الأصنام : إنهم شفعاء لهم عند الله ، فيقول الحق سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ③﴾ [يونس]

لأن الشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ، ومشفوعاً له ، ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة. والذى يستشفع هو المقصِّر ، وهؤلاء الكفار قالوا عن الأصنام : إنها شفعاء لهم عند الله ، وهذا إقرار منهم بالتقصير ، وأقروا بأن المشفوع عنده هو الله ، وأما المشفوع فيه ؛ فهو تخفيف العذاب أو إنهاء العذاب.

إذن : فالمشفوع فيه أمر مشترك ، والمشفوع عنده أمر مشترك ، أما الأمر فى الشافع ، والأمر فى المشفوع له ، فهما مختلفان. وأنت - على سبيل المثال ، لا تأتى بإنسان يسير فى الطريق وترسله ليشفع لك (مثلاً) عند المحافظ أو عند الوزير ؛ إن كانت لك حاجة عند أى منهما ، بل تأتى بإنسان تعلم رضا المحافظ عنه أو رضا الوزير عنه ، وله منزلة ومكانة ، وهذه المنزلة والمكانة تسمحان له بالإذن فى أن يكلِّم المحافظ أو الوزير فى أمور الناس.

وإذا كان هذا هو الحال فى الشفاعة من البشر لدى البشر ، فما بالنا

---

(١) الاعتضاد : التقوِّى والاستعانة ، واعتضدت بفلان : استعنت به ، والمعاضدة : المعاونة. وهى مأخوذة من العضد : وهو الساعد ، أى : ما بين المرفق إلى الكتف. والعضد : القوة ؛ لأن الإنسان إنما يقوى بعضده فسميت القوة به. قال تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ㉟﴾ [القصص].

بالشفاعة للإنسان لدى الله ؟ لذلك بيَّن الحق هنا أن الشفيع لا بد أن يكون بإذن منه سبحانه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ... ③﴾ [يونس]

وفى سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾ [طه]

إذن : فالشفيع لا بد له من إذن ورضًا من الله .

أما المشفوع له فقد قال الحق :

﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى .. ﴿٢٨﴾ [الأنبياء]

هكذا بيَّن لنا الحق عناصر الشفاعة : الشافع ، والمشفوع له ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه ، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة .

ولقائل أن يتساءل : ما دام الحق سبحانه قد رضى عن عبد ، فلماذا يحتاج العبد إلى الشفاعة ؟

وأقول : لننتبه إلى أن الإنسان يتعرض لأعمال كثيرة، وله نقاط ضعف فى حياته؛ قد تكون كثيرة، وقد تكون قليلة، فإذا جاء فى نقطة الضعف وأذنب ذنباً، فعليه أن يزيد من فعل النقاط القوية التى تُكتب له بها الحسنات؛ لأن المعيار هو : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ[1] يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ... ﴿١١٤﴾ [هود]

---

(١) ذهب بعض علماء التفسير إلى أن الحسنات هنا بمعناها المطلق أى : فعل الخير مطلقاً . وذهب بعضهم إلى أن الحسنات هنا المقصود بها الصلوات الخمس ، واستدلوا بحديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا» متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٨) ومسلم (٢٨٣) .

فالعبد حين يزيد من الحسنات فالحق سبحانه قد يمحو السيئات ، وليعلم كل إنسـان أنه إن اختلس من الله حكماً فـهـو لن يستطيع أن يهـرب من العقـاب ، وعليه أن يزيد من الحسنات ، ويرجو المغفرة من الله ؛ وقبول التكفير بالحسنات عن السيئات ، ولن يُفلت أحد من ملكوت[1] الله .

وهَبْ أن إنساناً فيه نقطة ضعف ، وأذنب ذنباً ، وعنده نقطة قوة يطيع فيها الله بسهولة ويُسْر ، هذا الإنسان له أن يعلم أن الله يحبه لأجل نقطة قوته هذه ، وقد يرحمه الله سبحانه فيما أذنب من الذنوب ، ويجعل المأذون له فى الشفاعة يشفع له عنده سبحانه .

فلماذا أراد الحق ذلك ؟

شاء الحق ذلك حتى لا يُحرَمُ العالم من الحسنات التى يجيدها ذلك الإنسان . ويحكى لنا الحديث النبوى الشريف عن الرجل الذى لقى كلباً يلهث من العطش ، ولم يجد الرجل إناء يملأه ماء من البئر ليسقى الكلب ، فنزل البئر وملأ خفه[2] ، وعاد إلى الكلب ليسقيه . وبطبيعة الحال لم يكن هذا الرجل لينافق الكلب ، بل منتهى الرحمة بهذا الحيوان ، كذات خلقها الله ؛ لذلك غفر الحق سبحانه لهذا الرجل[3] .

وهكذا نفهم أن الحق يغفر ويمحو السيئات . وقد جعل الحق سبحانه الشفاعة لرسول الله تكريماً له ﷺ ، وكذلك فى المأذون له فى الشفاعة ،

---

(١) ملكوت الله : سلطانه وعظمته . والملكوت : مُلْك الله خاصةً ، قال تعالى : ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون] . قال أبو إسحاق : ملكوت كل شيء معناه : القدرة على كل شيء .

(٢) الخف : النعل يلبسه الإنسان فى قدمه .

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : « يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٩) ومسلم فى صحيحه (٢٢٤٤) .

حتى يعلم المسلم أن الرسول قد يشفع له ، وأن المؤمن قد يشفع لأخيه ، وأن الأب قد يشفع لابنه [1] ، وحين يعلم المسلم ذلك ، فهو يحسن إلى كل هؤلاء ؛ لعله يحصل على الشفاعة منهم ، ويحسن اتباع سنة الرسول ﷺ ، ويحسن معاملة المؤمنين ، ويحسن الابن معاملة والديه ، وهكذا يعيش المجتمع فى كرامة الشفاعة بعمل الخير وإخلاص النية .

وإذا رأيت إنساناً محسناً فى دينه ، فلا بد لك أن تحترمه ؛ لأن إحسانه فى دينه قد ينفعك أنت ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [2] [الفاتحة]

وكان الحق سبحانه قادراً أن ينزلها « إياك أعبد وإياك أستعين » ولكنه شاء أن تنزل على صورتها تلك ؛ حتى يأذن سبحانه بقبول الصفقة من كل قائليها ، فيتقبل من عباده أعمالهم بما يغفر لبعضهم الأشياء المعيبة .

ولذلك أقول : إن رأيت إنساناً مستغرقاً فى العبادة فلا تسخر منه ولا تهزأ به ؛ لأن حرصه على الطاعة وانشغاله بالعبادة قد تنفعك أنت .

وساعة تتلقى أمراً من رسول الله ﷺ وتجده شاقاً ، فعليك أن تتذكر أنه المرجع الذى قد يشفع لك فى الأمور التى لم تقدر عليها .

---

(١) هذه الشفاعة مقيدة بألا تكون فى حد من حدود الله ، وهذا ما دلت عليه السنة الصحيحة ، فعن عائشة رضى الله عنها أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله » الحديث . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) والبخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) .

(٢) مراد الشيخ أن العبادة أولاً ثم يأتى العون ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل إلى البيت الحرام قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ ﴾ [إبراهيم] فالعبادة سبقت ، والعبادة وسيلة العطاءات والشفاعات وبالعبادة يأتى العون .

ولا بد أن يرضى الحق عن المشفوع له ؛ لأنه قد أجاد فعل حسنات . وإن كانت له سيئات ، وقد رأى رجل سيدنا عمر فى رؤيا ، فسأل الرائى سيدنا عمر بن الخطاب : ماذا فعل الله بك يا ابن الخطاب ؟ فقال سيدنا عمر : غفر الله لى . فسأل الرائى : بماذا ؟ أجاب سيدنا عمر : لأنى رأيت غلاماً يعبث بعصفور فاشتريته حتى لا أفجعه فى عصفور يملكه ، وأخذت العصفور وأطلقته .

واعترض أحد السامعين للرؤيا متسائلاً : ألم يفعل ابن الخطاب أعمالاً تؤهله لمغفرة الله إلا مسألة العصفور هذه ؟ فقال له قائل : أحسن الفهم يا رجل ؛ فمسألة إطلاق العصفور إنما تخص غفر الخطايا ، وأما أعمال عمر بن الخطاب الجليلة فهى لرفع الدرجات .

وفى القرآن آيتان جاءتا بنص متقارب ، فالحق يقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ[1] ... (٤٨) **﴾** [البقرة]

والآية الثانية تقول : **﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ... (١٢٣) **﴾** [البقرة]

ومن حاولوا المقارنة بين الآيتين بغرض الطعن فى القرآن ، هم من الغرباء عن اللغة ولا يملكون ملكة[2] البيان التى يمكن أن يستقبلوا الأساليب بها، ولو امتلكوا هذه الملكة لعلموا أن الصدر فى الآيتين محتمل

(١) عدل : فداء أو بدل .
(٢) الملكة : صفة راسخة فى النفس أو استعداد عقلى خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة ، مثل : الملكة اللغوية .

لوجهين ، فهناك نفس جازية هى التى تتشفع ونفس مجزىٌّ عنها هى التى يُتشفع لها .

والضمير الذى يأتى فى قوله الحق : ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَيُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ و ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا﴾ ، هذا الضمير يصح أن يرجع إلى النفس الشافعة ، ويصح أن يرجع إلى النفس المشفوع لها . والإنسان منا إذا ما كان عليه شىء لإنسان آخر ، وغير قادر على أن يستبرىء ذمته منه ، فهو يلجأ إلى صديق لهذا الآخر ، له مكانة عنده ليستشفع له . وفور أن يذهب صاحب المكانة إلى هذا الآخر فهو يقول له : هل تقبل شفاعتى لفلان ؟ فإن قال صاحب الأمر : لن أقبل الشفاعة ، فالمستشفع عنده يقول له : إذن : سأدفع العدل، أى: ما يساوى قيمة ما كنت سأتشفع له فيه. وهكذا نجد أنفسنا أمام نفسين : شافعة ، ومشفوع لها . والضمير يعود على أى من النفسين.

وهكذا نجد أن صدر كل آية من الآيتين اللتين يقال عنهما : إنهما متشابهتان ، صدر كل منهما منسجم مع عجزها .

وينهى الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بعد أن أوجزت الآية فكرة عن خلق الله تعالى للكون ، وأنه يشفع لمن شاء ويختار من يقدم له الشفاعة ، فيقول : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس]

فسبحانه خلق الكون ، واستتبَّت بيده مقاليد الأمور ، وخلق الإنسان ليعمر هذا الكون ، ونعلم أنه سبحانه قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ، وحين يشهد الحق لنفسه ، فسبحانه على ثقة تامة بأن أوامره فى كونه نافذة .

وقوله سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أى : إشارة إلى ما تقدم من خلق السموات والأرض ، والاستواء على العرش ، وتدبير الأمر كله ،

ولا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، هذا هو الله ربكم ، وما دام هو ربكم فاعبدوه ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وله كل صفات الكمال المطلق .

وهذه العبادة لا تعود عليه سبحانه بأى فائدة ، فسبحانه منزَّه عن فائدة تعود عليه ؛ لأنكم إن عبدتموه فلن تزيدوا فى ملكه شيئاً ، وإن لم تعبدوه فلن تنقصوا من ملكه شيئاً [1] . والعبادة يعود نفعها عليكم ؛ لأنكم ستأخذون بها منهجاً يخرج كل الخلق عن أهوائهم ، ويصير هوى الموجِّه واحداً ، فلا تصطدم إرادة بإرادة ، بل تتساند الإرادات ؛ فيتكامل العالم .

إذن : فالعبادة توحِّد أهواء الخلق إلى مراد واحد ، لا يأنف [2] الإنسان منا أن يخضع له ؛ لأن هذا ليس خضوعاً من بشر لبشر ، بل خضوعاً من مخلوق لخالق ، وبذلك تستقيم أموركم الاختيارية ، كما استقامت أموركم غير الاختيارية .

وهكذا لا تنحصر العبادة فى أركان الإسلام الخمسة فقط ، بل تكون هذه الأركان الخمسة هى الدعائم التى تقوم عليها عمارة الإسلام ، وكل الإسلام هو كل أمر لله وكل نهى له سبحانه ؛ ولذلك حين نتابع تسلسل الأمور ، سنجد أن أركان الإسلام الواجبة تعتمد على حركة الحياة كلها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

---

(١) عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « . . . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . . » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) .

(٢) يأنف : يكره .

ويقول الحق في آخر الآية: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ والذهن أو المخ - كما نسميه - فيه ملكات متعددة مثل: ملكة التخيُّل، وملكة الحفْظ والاختزان، وكثير من الملكات الأخرى منها مَلَكَةُ التذكُّر. ومعنى التذكُّر أن شيئاً سبق لك إلْفٌ [1] به، فطرأ عليك ما أنساك، وحين تنسى أمراً يخصُّ أحد أقرانك، فهو يقول لك: تذكر يا أخي الأمر الفلاني، وهو لا يأتي لك بأمرٍ مجهول لم تعرفه أولاً، بل يأتي لك بأمر كان معلوماً لك، ولكنك نسيته.

والإنسان حين ينظر إلى الكون نظرة غير متحيزة لا بد أن يؤمن بأن لهذا الكون إلهاً، وهذا الأمر لا نأخذه من الفلاسفة، بل من رجل الشارع، وراعي الشاة؛ فقد جاء في الأثر أن راعياً كان يسير في الصحراء فرأى بَعْراً [2] في الطريق، فقال: إذا كان البعر يدل على البعير، والسير يدل على المسير، أفلا يدل كل هذا الكون على وجود اللطيف الخبير ؟!

والمثال من حياتنا اليومية: أن غسّالة الملابس الكهربية - وهي لا تدل على شيء ضروري في الحياة، بدليل أن السابقين علينا كانوا يغسلون ملابسهم بدونها، فهي تمثل ترفاً، لا ضرورة - نجد الناس يعرفون من الذي ابتكرها، ومن أوصلها بالكهرباء ومَنْ صنع لها توقيتات دورات الغسيل، ومثلها مثل المصباح الكهربي الذي يفسد بعد عدد معيّن من الساعات، ونجد التلاميذ يدرسون تاريخ من صنعه، فهل يمكن أن ننسى من خلق الشمس التي تضيء الكون ؟

---

(١) ألِفْتُ الشيء وآلفتُه: لزمته، أو أنست به، أو اعتدته، فهو مألوف. قال تعالى: ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) ﴾ [قريش].

(٢) البَعْرة: واحدة البعر، وهو رجيع الخُفّ، والظِّلف من البعير.

بل ونجد فى زماننا العالم الكافر وهو يـمدُّنا بأدلة الإيمان ، فكل اختراع نجد مَنْ يسجله ؛ حتى لاَ يسرقه غيره ، فما بالنا بالشمس التى تضىء وتُدْفىء ، والقمر الذى يحدد الشهور ، والنجوم التى تدل الناس على الاتجاهات [1] ولا شىء فى كون الله يحتاج إلى قطع غيار ، ألا نعترف بمن خلق كل ذلك ، ها هو ذا سبحانه يدلنا على مَنْ خلق ويبلغنا ما يسجل له ملكية ما خلق ، فأنزل القرآن على الرسول ﷺ ليدلنا على أنه سبحانه الذى خلق ، وأبقى الله الكافرين ليتحدى مَنْ يناقض قضية الخلق . وسجل الحق سبحانه ما خلقه لنفسه، ولم يقدر أحد من الكافرين على إنكار ذلك.

ولن نأخذ الأدلة على وجود الله من الفلاسفة الذين يرتبون النتائج على المقدمات ، ومطابقة قياس الشكل على الموضوع ، بل سوف نأخذ الدليل من كلمة « الكفر» نفسها ، هذه الكلمة (كفر) تعنى : (ستر) ، فهل يُسْتَرُ إلا موجودٌ ؟

إذن : فالكفر بالله دليل على وجود الله ، وما دام الكفر سَتْراً ، فالكفر أمر طارىء ، نتيجة للغفلة ، والغفلة إنما تأتى لأن مقتضيات الإيمان تقيد النفس فى حركتها ؛ لذلك قد يغفل الإنسان متناسياً أن قيود المنهج لا تطبق عليه وحده ، بل تطبق على كل الناس .

فحين يُحرِّم الله السرقة ، فهو لم يحرمها على إنسان واحد ، بل حرمها على كل إنسان ، فقيَّد الآخرين ومنعهم من أن يسرقوا منك .

---

(١) ملأ الله سبحانه الكون بدلائل ربوبيته ووحدانيته وأنه الخالق سبحانه وهو البديع الذى أبدع الأشياء على غير مثال سابق ، وجعلها سبحانه ظاهرة للأعين :
منها الشمس التى قال عنها سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] وقال عنها وعن القمر : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس] وعن النجوم قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنعام] .

وحين يأمرك بغضّ بصرك [١] عن محارم جارك ، فهو يحمى محارمك أن ينظر إليها غيرك .

إذن : فالإيمان جاء بالنفعية لكل إنسان . وما دام الأمر كذلك ، نجد الحق سبحانه يقول [٢] : ﴿ اذْكُرُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ . [فاطر]

وحين يجلس الإنسان بمفرده ولا تُحركه شهواته فهو يهتدى إلى الإيمان بأن هذا الكون لم يأت صدفة .

واسم الخالق للكون لا يمكن أن يعرفه الإنسان بعقله ؛ لأن التصورات تختلف من إنسان لآخر . وتجد أن الفلاسفة حين أقروا بأن هذا الكون لا بُدَّ له من خالق لم يتعرفوا على الاسم ، بل أخطأ بعضهم التصور وظنوا أن من خلق الكون ترك النواميس لتعمل ، وتناسوا أن الخالق لا يباشر سلطانه فى الكون مرة واحدة . لذلك جاء الرسل بالمعجزات التى تخرق النواميس ؛ ليدلنا سبحانه على أنه هو الذى خلق ، وله قيومية على ما خلق ، فليست المسألة مسألة نواميس تعمل بذاتها ،بل شاء سبحانه أن يدلنا على عدم الآلية فى الكون .

ونحن نعلم أن الآلية التى يصممها البشر فى بعض المعدات تتسبب فى إحداث جمود ، فالعقل الإلكترونى ليست له قيومية على المعلومات المختزنة فيه ، فلا يستطيع أن يخفى منها شيئاً إذا طلبت منه .

أما عقل الإنسان فله سيطرة على معلوماته ويستطيع أن يخفى ما شاء منها ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) يقول عز وجل : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النور] .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ، فالنعمة موجودة أوجدها الخالق سبحانه فى الكون ، وطرأ الإنسان على الكون ، ولكنه تغافل فاحتاج إلى التذكرة من خالقه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا (١) الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

فما دام قيل للإنسان : لا تكتم الحق . إذن : فله قدرة على الإخفاء .

والوردة الطبيعية - على سبيل المثال - حيويتها في ذبولها على عكس الوردة الصناعية التي تظل على جمودها ليس فيها حياة .

والحق حين يقول : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

أو ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [السجدة]

فهو يحرّض الإنسان على أن يتذكر ، ويتفكر ، ويعتبر . ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان ، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى : هب أنك ذهبت إلى محل للصوف لتشتري قماشاً متميزاً ، فتجد البائع يفرد أمامك القماش ، ويشده بيديه ليبين لك متانته ، ثم يأخذ منه خيطاً ويحرقه ليبين لك أنه صوف خالص نقي ، إن هذا البائع يحاول أن يشرح لك خبايا صناعة الصوف ؛ لأنه واثق من جودة ما يبيع .

هذا ما يحدث فيما بين البشر ، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار .

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان منا ، إن فعل ذلك ؛ فسيصل إلى مراد الحق من الخلق .

---

(١) التبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . التلبيس : كالتدليس والتخليط . إلباس الحق بالباطل : خلطه به ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام] .

وإياكم أن تظنوا أن الله خلَق لكم ، ثم خلَق لكم ، ثم أنزل لكم المنهج ليسعد حياتكم في الدنيا والآخرة ، ثم اعتزلكم . لا ، بل هو قيُّوم حياتكم ولا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يفلت منه شيء ، ولا أحد بقادر على أن يختلس منه شيئا .

وفي الحديث القدسي : « يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِم جعلتموني أهون الناظرين إليكم » .

وأنت في الحياة اليومية تعرف أن أحداً لا يقترب من إنسان قوي منتبه .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ[1] وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ فهذا إعلام لكل الخلق أن كل الأمور معلومة له سبحانه ، فقد أنزل التكليف الذي قد يُطاع ؛ وقد يُعصى . فمن أطاع يفرح بقوله سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، ومن عصى يحزن ؛ لأنه سيلقى عقاب العصاة حين يرجع إلى الله[2] .

---

(١) حميم : ماء شديد الحرارة والسخونة .

(٢) وقد دلَّ القرآن على أن المؤمنين رغم طاعتهم لله إلا أنك تجدهم مشفقين من يوم القيامة وما فيه من أهوال وهذا لعظم إيمانهم بأن الله سريع الحساب وأنه سبحانه شديد العقاب ؛ ولأنهم يعملون الطاعات ويخافون ألا تقبل ، ويقعون في المعاصي ويخشون ألاَّ يُغفر لهم . يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] .